سـورة الأنعام

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وهي مكية في قول الأكثرين؛ قال ابن عباس وقتادة: هي مكية كلها إلا آيتين منها نزلتا بالمدينة، قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ نزلت في مالك بن الصيف وكعب بن الأشرف اليهوديين، والأخرى قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ نزلت في ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري. وقال ابن جُرَيج: نزلت في معاذ بن جبل، وقاله الماوردي. وقال الثعلبي: سورة «الأنعام» مكية إلا ست آيات نزلت بالمدينة ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ إلى آخر ثلاث آيات و﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى آخر ثلاث آيات؛ قال ابن عطية: وهي الآيات المحكمات. وذكر ابن العربي: أن قوله تعالى: ﴿قُل لاَّ أَجِدُ﴾ نزل بمكة يوم عرفة. وسيأتي القول في جميع ذلك إن شاء الله. وفي الخبر أنها نزلت جملة واحدة غير الست الآيات، وشيعّها سبعون ألف ملك، مع آية واحدة منها اثنا عشر ألف ملك، وهي ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾ نزلوا بها ليلاً لهم زَجَل بالتسبيح والتحميد، فدعا رسول الله ﷺ الكتّاب فكتبوها من ليلتهم [(١)]. وأسند أبو جعفر النحاس قال: حدثنا محمد ابن يحيى حدّثنا أبو حاتم روح بن الفرج مولى الحضارمة قال حدّثنا أحمد بن محمد أبو بكر العمري حدّثنا ابن أبي فُدَيْك حدّثني عمر بن طلحة بن علقمة بن وَقّاص عن نافع أبي سهل بن مالك عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «نزلت سورة الأنعام معها موكب من الملائكة سدّ ما بين الخافقين لهم زَجَلٌ بالتسبيح» والأرض لهم ترتج ورسول الله ﷺ يقول: «سبحان ربي العظيم» ثلاث مرات [(٢)]. وذكر الدارميّ أبو محمد في مسنده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: الأنعام من نجائب القرآن [(٣)]. وفيه عن كعب قال: فاتحة «التوراة» فاتحة الأنعام وخاتمتها خاتمة «هود» [(٤)]. وقاله وهب بن منبه أيضاً. وذكر المهدويّ قال المفسرون: إن «التوراة» افتتحت بقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ الآية وختمت بقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ [الإسراء: ١١١] إلى آخر الآية. وذكر الثعلبيّ عن جابر عن النبي ﷺ قال: «من قرأ ثلاث آيات من أوّل سورة «الأنعام» إلى قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ وكل الله به أربعين ألف ملك يكتبون له مثل عبادتهم إلى يوم القيامة، وينزل ملك من السماء السابعة ومعه مِرْزَبَة من حديد، فإذا أراد الشيطان أن

---

(١) ضعيف: ابن الضُرَيْس (١٩٦) في فضائله، وأبو عبيد (ص ١٢٩) بسند ضعيف.
والزجل: صوت عال بالتسبيح (النهاية ٢/ ٢٩٧) لابن الأثير.

(٢) ضعيف: فيه طلحة بن علقمة وهو لين الحديث وانظر الطبراني (٦٤٤٧) في الأوسط، وضعفه الهيثمي (٧/ ٢٠) في المجمع وأعله بـ(محمد بن عبد الله بن عرس عن أحمد بن محمد بن أبي بكر السالمي شيخي الطبراني) وقال: «لم أرو عنهما».

(٣) ضعيف: الدارمي (٢/ ٤٥٣) في سننه في فضائل القرآن.

(٤) صحيح: السابق (٢/ ٤٥٣).

يوسوس له أو يُوحِي في قلبه شيئاً ضربه ضربة فيكون بينه وبينه سبعون حجاباً، فإذا كان يوم القيامة قال الله تعالى: «امشِ في ظِلي يوم لا ظِل إلا ظِلي وكل من ثِمار جنتي واشرب من ماء الكوثر واغتسل من ماء السلسبيل فأنت عبدي وأنا ربك»(١). وفي البخاريّ عن ابن عباس قال: إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة من سورة «الأنعام» ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠] (٢).

تنبيه قال العلماء: هذه السورة أصل في محاجّة المشركين، وغيرهم من المبتدعين، ومن كذب بالبعث والنشور؛ وهذا يقتضي إنزالها جملة واحدة؛ لأنها في معنى واحد من الحجة، وإن تصرف ذلك بوجوه كثيرة، وعليها بنى المتكلمون أُصول الدين؛ لأن فيها آيات بينات تردّ على القدرية دون السور التي تذكر والمذكورات، وسنزيد ذلك بياناً إن شاء الله بحول الله تعالى وعونه.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ بدأ سبحانه فاتحتها بالحمد على نفسه، وإثبات الألوهية؛ أي: أن الحمد كله له فلا شريك له. فإن قيل: فقد افتتح غيرها بالحمد لله فكان الاجتزاء بواحدة يغني عن سائرة؟ فيقال: لأن لكل واحدة منه معنى في موضعه لا يؤدِّي عنه غيره من أجل عقده بالنعم المختلفة، وأيضاً فلما فيه من الحجة في هذا الموضع على الذين هم بربهم يعدِلون. وقد تقدّم معنى «الحمد» في الفاتحة.

الثانية: قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ أخبر عن قدرته وعلمه وإرادته فقال: ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ أي: اخترع وأوجد وأنشأ وابتدع. والخلق يكون بمعنى الاختراع، ويكون بمعنى التقدير، وقد تقدّم، وكلاهما مراد هنا؛ وذلك دليل على حدوثهما؛ فرفع السماء بغير عمد، وجعلها مستوية من غير أَوَد، وجعل فيها الشمس والقمر آيتين، وزينها بالنجوم، وأودعها السحاب والغيوم علامتين؛ وبسط الأرض وأودعها الأرزاق والنبات، وبث فيها من كل دابّة آيات؛ وجعل فيها الجبال أوتاداً، وسبلاً فجاجاً، وأجرى فيها الأنهار والبحار، وفجر فيها العيون من الأحجار دلالات على وحدانيته، وعظيم قدرته، وأنه هو الله الواحد القهار، وبين بخلقه السموات والأرض أنه خالق كل شيء.

الثالثة: خرّج مسلم قال: حدّثني سُرَيْج بن يونس وهارون بن عبد الله قالا: حدّثنا حجاج بن محمد قال قال ابن جريج أخبرني إسماعيل بن أُمية عن أيوب بن خالد عن عبد الله بن رافع مولى أُمّ سلمة عن أبي هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «خلق الله عز وجل التربة يوم السبت

---

(١) لم يصح ذلك عن رسول الله ﷺ وعلامات الوضع ظاهرة فيه.

(٢) صحيح: البخاري (٣٥٢٤) في المناقب

وخلق فيها الجبال يوم الأحد وخلق الشجر يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء وبَثّ فيها الدوابّ يوم الخميس وخلق آدم عليه السلام بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل» (١).

قلت: أدخل العلماء هذا الحديث تفسيراً لفاتحة هذه السورة؛ قال البَيْهَقيّ: وزعم أهل العلم بالحديث أنه غير محفوظ لمخالفة ما عليه أهل التفسير وأهل التواريخ. وزعم بعضهم أن إسماعيل بن أُميّة إنما أخذه عن إبراهيم بن أبي يحيى عن أيوب بن خالد، وإبراهيم غير محتج به. وذكر محمد بن يحيى قال: سألت عليّ بن المدينيّ عن حديث أبي هُريرة «خلق الله التُّربة يوم السبت» فقال عليّ: هذا حديث مدنيّ، رواه هشام بن يوسف عن ابن جُرَيْج عن إسماعيل بن أُميّة عن أيوب بن خالد عن أبي رافع مولى أُمّ سَلَمة عن أبي هُريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي؛ قال عليّ: وشَبَّك بيدي إبراهيم بن أبي يحيى، فقال لي: شَبّك بيدي أيوب بن خالد، وقال لي: شَبَّك بيدي عبد الله بن رافع، وقال لي: شَبَّك بيدي أبو هُريرة، وقال لي: شَبَّك بيدي أبو القاسم رسول الله ﷺ فقال: «خلق الله الأرض يوم السبت» فذكر الحديث بنحوه. قال عليّ بن المَدِيني: وما أرى إسماعيل بن أُمية أخذ هذا الأمر إلا من إبراهيم بن أبي يحيى، قال البيهقيّ: وقد تابعه على ذلك موسى بن عُبيدة الرَّبَذي عن أيوب بن خالد: إلا أن موسى بن عُبيدة ضعيف. وروى عن بكر بن الشَّرُود، عن إبراهيم بن أبي يحيى عن صفوان بن سُلَيْم، عن أيوب بن خالد وإسناده ضعيف عن أبي هُرَيرة، عن النبي ﷺ قال: «إن في الجمعة ساعة لا يوافقها أحد يسأل الله عز وجل فيها شيئاً إلا أعطاه إياه»(٢) قال فقال عبد الله بن سَلاَم: إنّ الله عز وجل ابتدأ الخلق فخلق الأرض يوم الأحد ويوم الاثنين وخلق السموات يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء، وخلق الأقوات وما في الأرض يوم الخميس ويوم الجمعة إلى صلاة العصر، وما بين صلاة العصر إلى أن تغرب الشمس خلق آدم، خرّجه البيهقي.

قلت: وفيه أن الله تعالى بدأ الخلق يوم الأحد لا يوم السبت وكذلك تقدّم في «البقرة» عن ابن مسعود وغيره من أصحاب النبي ﷺ. وتقدّم فيها الاختلاف أيّما خلق أوّلاً الأرض أو السماء مستوفى. والحمد لله.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ ذكر بعد خلق الجواهر خلق الأعراض لكون الجوهر لا يستغنى عنه، وما لا يستغنى عن الحوادث فهو حادث. والجوهر في اصطلاح المتكلمين هو الجزء الذي لا يتجزأ الحامل للعَرَض؛ وقد أتينا على ذكره في الكتاب «الأسْنَى في شرح أسماء الله الحسنى» في اسمه «الواحد». وسمى العَرَض عَرَضا؛ لأنه يعرض في الجسم والجوهر فيتغير به من حال إلى حال، والجسم هو المجتمع، وأقل ما يقع عليه اسم الجسم جوهران مجتمعان؛ وهذه الاصطلاحات وإن لم تكن موجودة في الصدر الأوّل فقد دل عليها معنى الكتاب والسنة فلا معنى

---

(١) صحيح: وقد دار حول هذا الحديث كلام كثير من الأئمة البخاري وابن كثير وابن المديني، وهو عند مسلم (٢٧٨٩) في صفات المنافقين.

(٢) طرفه الأول متفق عليه: البخاري (٩٣٥) في الجمعة، ومسلم (٨٥٢) في الجمعة، وهو بتمامه عند البيهقي (ص ٣٨٣) في الأسماء والصفات.

لإنكارها. وقد استعملها العلماء واصطلحوا عليها، وبنَوا عليها كلامهم، وقَتلوا بها خصومهم، كما تقدّم في «البقـرة». واختلف العلماء في المعنى المراد بالظّلمات والنّور؛ فـقال السّدي وقَتَادة وجـمهور المفسرين: المراد سواد الليل وضياء النهار. وقـال الحسن: الكفر والإيمان. قال ابن عطية: وهذا خروج عن الظاهر.

قلت: اللفظ يعمه؛ وفي التنزيل: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأنعام: ١٢٢] ﴿وَالأَرْضَ﴾ هنا اسم للجنس فـإفرادها في اللفظ بمنزلة جمـعها؛ وكـذلك «والنور» ومثله ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ [غافر: ٦٧] وقال الشاعر:

كُلُوا فِي بَعْضِ بَطْنِكُمُ تَعِفُّوا

وقد تقدّم. وجعل هنا بمعنى خلق لا يجوز غيره؛ قاله ابن عطية.

قلت: وعليه يتـفق اللفظ والمعنى في النَّسق؛ فيكون الجمع مـعطوفاً على الجمع والمفرد مـعطوفاً على المفرد، فيـتجانس اللفظ وتظهر الفصاحـة، والله أعلم. وقيل: جمع ﴿الظُّلُمَاتِ﴾ ووحّد «النور» لأن الظلمات لا تتعدّى والنور يتعدّى. وحكى الثعلبيّ أن بعض أهل المعاني قال: ﴿جَعَلَ﴾ هنا زائدة؛ والعرب تزيد ﴿جَعَلَ﴾ في الكلام كقول الشاعر:

وقد جَعَلتُ أَرَى الاثنين أربعةً والواحد اثنينِ لَمّا هَدَّني الكِبَرُ

قال النحـاس: جعل بمعنى خلق، وإذا كـانت بمعنى خلق لم تتعدّ إلا إلى مـفعول واحـد، وقد تقدّم هذا المعنى، ومحامل جعل في «البقرة» مستوفى.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ ابتداء وخبـر، والمعنى: ثم الذين كفروا يجعلون لله عـدلاً وشريكاً، وهو الذي خلق هذه الأشـياء وحده. قال ابن عـطية: فـ «ثم» دالة على قبح فعـل الكافرين؛ لأن المعنى: أن خلقه السمـوات والأرض قد تقرّر، وآياته قد سطعـت، وإنعامه بذلك قد تَبيّن، ثم بعد ذلك كله عدلوا بربهم؛ فهذا كـما تقول: يا فلان أعطيتك وأكرمتك وأحسنت إليك ثم تَشتمني. ولو وقع العطف بالواو في هذا ونحوه لم يلزم التوبيخ كلزومه بثُمَّ، والله أعلم.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝٢﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ الآية خبر، وفـي معناه قولان: أحدهمـا وهو الأشهر، وعليـه من الخلق الأكثـر، أن المراد آدم عليه السـلام والخلق نَسْله، والفرع يضـاف إلى أصله؛ فلذلك قال: ﴿خَلَقَكُم﴾ بالجمع؛ فأخرجه مخرج الخطاب لهم إذ كانوا ولده؛ هذا قول الحسن وقَتَادة وابن أبي نَجيح والسُّدي والضّحاك وابن زيد وغيرهم. الثاني: أن تكون النطفة خلقها الله من طين على الحقيقة ثم قلبها حتى كان الإنسان منها؛ ذكره النحاس.

قلت: وبالجملـة فلما ذكر جل وعـز خلق العالم الكبـير ذكـر بعده خلق العـالم الصغـير وهو الإنسان، وجـعل فيه مـا في العالم الكبيـر، على ما بيّناه في «البـقرة» في آية التوحـيد (والله أعلم) والحمد لله. وقد روى أبو نعيم الحافظ في كتابه عن مُرَّة عن ابن مسعود أن المَلَك الموكَّل بالرَّحم يأخذ

النطفة فيضعها على كفه ثم يقول: يا رب مُخلّقة أو غير مخلّقة ؟ فإن قال مُخلّقة قال: يا رب ما الرزق، ما الأثر، ما الأجل ؟ فيقول: انظر في أُمّ الكتاب، فينظر في اللوح المحفوظ فيجد فيه رزقه وأثره وأجله وعمله، ويأخذ التراب الذي يدفن في بقعته ويعجن به نطفته؛ فذلك قوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ [طه: ٥٥] (١). وخرّج عن أبي هُريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلا وقد ذُرَّ عليه من تراب حُفْرته»(٢).

قلت: وعلى هذا يكون كل إنسان مخلوقاً من طين وماء مهين، كما أخبر جل وعز في سورة «المؤمنون»؛ فتنتظم الآيات والأحاديث، ويرتفع الإشكال والتعارض، والله أعلم. وأما الإخبار عن خلق آدم عليه السلام فقد تقدّم في «البقرة» ذكره واشتقاقه، ونزيد هنا طرفاً من ذلك ونعته وسنّه ووفاته؛ ذكر ابن سعد في «الطَّبقات» عن أبي هُريرة قال قال رسول الله ﷺ: «الناس ولد آدم وآدم من التراب» (٣). وعن سعيد بن جُبير قال: خلق الله آدم عليه السلام من أرض يقال لها دَجْنَاء(٤)؛ قال الحسن: وخلق (٥) جُؤْجُؤه من ضَرِيّة؛ قال الجوهريّ: ضَرِيَّة قرية لبني كلاب على طريق البصرة وهي إلى مكة أقرب، وعن ابن مسعود قال: «إن الله تعالى بعث إبليس فأخذ من أديم الأرض من عَذْبها ومالحها فخلق منه آدم عليه السلام فكل شيء خلقه من عَذْبها فهو صائر إلى الجنة وإن كان ابن كافر، وكل شيء خلقه من مالحها فهو صائر إلى النار وإن كان ابن تقيّ؛ فمن ثَمّ قال إبليس: ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١] لأنه جاء بالطينة؛ فسمي آدم؛ لأنه خلق من أديم الأرض. وعن عبد الله بن سَلاَم قال: خلق الله آدم في آخر يوم الجمعة. وعن ابن عباس قال: لما خلق الله آدم كان رأسه يَمسُّ السماء قال؛ فوَطَّده إلى الأرض حتى صار ستين ذراعاً في سبعة أذرع عرضاً. وعن أُبيّ بن كعب قال: كان آدم عليه السلام طُوَالاً جَعْدا كأنه نخلة سَحُوق(٦). وعن ابن عباس في حديث فيه طول وحج آدم عليه السلام من الهند إلى مكة أربعين حجة على رجليه، وكان آدم حين أُهبط تمسح رأسه السماء؛ فمن ثم صَلِع وأورث ولده الصَّلَع، ونَفَرت من طوله دواب البرّ فصارت وحشا من يومئذ، ولم يمت حتى بلغ ولده وولد ولده أربعين ألفاً، وتُوفي على ذِرْوة الجبل الذي أنزل عليه، فقال شيث لجبريل عليهما السلام: «صَلِّ على آدم» فقال له جبريل عليه السلام: تقدّم أنت فَصَلِّ على أبيك وكَبِّر عليه ثلاثين تكبيرة، فأما خمس فهي الصلاة، وخمس وعشرون تفضيلاً لآدم. وقيل: كبّر عليه أربعاً؛ فجعل بنو شيث آدم في مغارة وجعلوا عليها حافظاً لا يقربه أحد من بني قابيل، وكان الذين يأتونه ويستغفرون له بنو شيث، وكان عمر آدم تسعمائة سنة وستا وثلاثين سنة.

---

(١) صحيح : أبو نعيم (٢/ ٢٨٠) في الحلية.

(٢) غريب : أبو نعيم (٢/ ٢٨٠) في الحلية.

قلت : وله شواهد يترقى بها إلى الحسن انظر : مصنف عبد الرزاق (٦٥٣٢) والمجمع (١/ ٤٢) للهيثمي رحمه الله.

(٣) صحيح : أبو داود (٥١١٦) في الأدب ، والترمذي (٣٩٨١ ، ٣٩٨٢) عن أبي هريرة صحيحًا كما قال الألباني والترمذي (٣٢٨١) عن ابن عمر وصححه الألباني.

(٤، ٥) سبق التعليق على هذه الآثار في سورة البقرة عند خلق آدم عليه السلام.

(٦) روى هذا مرفوعًا وقد سبق ، والسحوق: الطويلة. اللسان «سحق».

ويقال: هـل في الآية دليل على أن الجواهر من جنس واحـد ؟ الجواب نعم؛ لأنه إذا جـاز أن ينقلب الطين إنساناً حياً قادراً عليما، جاز أن ينقلب إلى كل حال من أحوال الجواهر؛ لتسوية العقل بين ذلك في الحكم، وقد صح انقلاب الجماد إلى الحيوان بدلالة هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً﴾ مفعول. ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ﴾ ابتداء وخبر. قال الضحاك: «أَجَلاً» في الموت ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ﴾ أجل القيامة؛ فالمعنى على هذا: حَكَم أجلاً، وأعلمكم أنكم تقيمون إلى الموت ولم يعلمكم بأجل القيامة. وقال الحسن ومجاهد وعكْرمة وخصيف وقَتَادة وهذا لفظ الحسن : قضى أجل الدنيا من يوم خلقك إلى أن تموت ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ﴾ يعني الآخرة. وقيل: ﴿قَضَىٰ أَجَلاً﴾ ما أُعلمناه من أنه لا نبيّ بعد محمد ﷺ، ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ من الآخرة. وقيل: ﴿قَضَىٰ أَجَلاً﴾ مما نعرفه من أوقات الأهلّة والزرع وما أشبههما، ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أجل الموت؛ لا يعلم الإنسان متى يموت. وقال ابن عباس ومجاهد: معنى الآية ﴿قَضَىٰ أَجَلاً﴾ بقضاء الدنيا، ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ﴾ لابتداء الآخرة. وقيل: الأوّل قبض الأرواح في النوم، والثاني قبض الروح عند الموت؛ عن ابن عباس أيضاً.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ ابتداء وخبر: أي: تَشكُّون في أنه إله واحد. وقيل: تمارون في ذلك أي: تجادلون جدال الشَّاكِّين؛ والتَّمَاري المجادلة على مذهب الشّك؛ ومنه قوله تعالى: ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ [النجم: ١٢].

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ۝ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَـٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ﴾ يقال: ما عامل الإعراب في الظرف من ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ﴾ ؟ ففيه أجوبة: أحدها: أي: وهو الله المعظَّم أو المعبود في السموات وفي الأرض؛ كما تقول: زيد الخليفة في الشرق والغرب أي: حُكْمه. ويجوز أن يكون المعنى وهو الله المنفرد بالتدبير في السموات وفي الأرض؛ كما تقول: هو في حاجات الناس وفي الصلاة، ويجوز أن يكون خبراً بعد خبر ويكون المعنى: وهو الله في السموات وهو الله في الأرض. وقيل: المعنى وهو الله يعلم سِرّكم وجهركم في السموات وفي الأرض فلا يخفى عليه شيء؛ قال النحاس: وهذا من أحسن ما قيل فيه. وقال محمد بن جَرير: وهو الله في السموات ويَعلم سِرّكم وجهركم في الأرض؛ فيعلم مقدّم في الوجهين، والأول أسلم وأبعد من الإشكال. وقيل غير هذا. والقاعدة تنزيهه جل وعز عن الحركة والانتقال وشَغْل الأمكنة. ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ أي: من خير وشر. والكسب الفعل لاجتلاب نفع أو دفع ضرر؛ ولهذا لا يقال لفعل الله كَسْبٌ.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ﴾ أي: علامة كانشقاق القمر ونحوها. و﴿مِّنْ﴾ لاستغراق الجنس؛ تقول: ما في الدار من أحد. ﴿مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ ﴿مِّنْ﴾ الثانية للتبعيض. و﴿مُعْرِضِينَ﴾ خبر

﴿كَانُوا﴾. والإعراض ترك النظر في الآيات التي يجب أن يستدلوا بهـا على توحيد الله جل وعز من خلق السموات والأرض وما بينهما، وأنه يرجع إلى قديم حي غنيّ عن جميع الأشياء، قادر لا يعجزه شيء، عالم لا يخـفى عليه شيء من المعجزات التي أقـامها لنبيـه ﷺ؛ ليُستَدلّ بها عـلى صدقه في جميع ما أتى به.

قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ يعني مشركي مكة. ﴿بِالْحَقِّ﴾ يعني القرآن، وقـيل: بمحمد ﷺ. ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ﴾ أي: يَحلّ بهم العقاب؛ وأراد بالأنباء وهي الأخبار العـذاب؛ كقولك: اصبر وسوف يأتيك الخبر أي: العذاب؛ والمراد ما نالهم يوم بَدْر ونحوه. وقيل: يوم القيامة.

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ۝٦﴾

قولـه تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ ﴿كَمْ﴾ في موضع نصب بأهلـكنا لا بقولـه: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ لأن لفظ الاستفهام لا يعمل فيه مـا قبلـه، وإنما يعمل فيه ما بعده؛ من أجل أن لـه صدر الكلام. والمعنى ألاَ يعتبـرون بمن أهلكنا من الأمم قبلـهم لتكذيبهم أنبيـاءهم؛ أي: ألم يَعْرفوا ذلك. والقَرْن الأُمَّةُ من الناس، والجمع القرون.

قال الشاعر:

إذا ذَهَبَ القرنُ الذي كنتَ فيهم وخُلِّفتَ في قَرْنٍ فأنت غريبُ

فالقَرْن كل عـالَم في عصره؛ مأخوذ من الأقـتران، أي: عالَم مقتـرن بعضهم إلى بعض؛ وفي الحديث عن النبي ﷺ قـال: «خير الناس قَرْني يعني أصحـابي ثم الذين يَلُونهم ثم الذين يَلُونهم»(١) هذا أصح ما قيل فيه. وقيل: المعنى من أهل قَرْن فحذف، كقوله: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾. فالقَرْن على هذا مدة من الزمان؛ قيل: ستون عاماً، وقيل: سبعون، وقيل: ثمانون؛ وقيل: مائة؛ وعليه أكثر أصحاب الحديث أن القَرْن مائة سنة(٢)؛ واحتجوا بـأن النبي ﷺ قال لعبد الله بن بُسْر: «تَعيشُ قَـرْناً» فعاش مائة سنة؛ ذكره النحاس. وأصل القرن الشيء الطالع كـقَرْن ماله قَرْن من الحيوان. ﴿مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ خروج من الغيـبة إلى الخطاب؛ عكسه ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس: ٢٢]وقال أهل البصرة: أخبر عنهم بقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ وفيهم محمـد عليه السلام وأصحابه؛ ثم خاطبهم مـعهم؛ والعرب تقول: قلت لعبد الـله ما أكرمه: وقلت لعبد الله مـا أكرمك؛ ولو جاء على ما تقدّم من الغيـبة لقال: ما لم نمكن لهم. ويجوز مكّنه ومكّن له؛ فجاء باللغـتين جميعاً؛ أي: أعطيناهم ما لم نعطكم من الدنيا. ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾ يريد المطر الكثير؛ عـبر عنه بالسماء

(١) متفق عليه: البخاري (٢٦٥١) في الشهادات، ومسلم (٢٥٣٥) في فضائل الصحابة.

(٢) رجاله ثقات: الهيـثمي (٩/ ٤٠٤) في المجمع وعزاه للطبراني والبزار وقال: «ورجـال أحد إسنادي البزار رجال الصحيح غير الحسن بن أيوب الحضرمي وهو ثقة».

لأنه من السماء ينزل.

ومنه قول الشاعر:

إذَا سَقَطَ السَّمَاءُ بأرضِ قَوْمٍ

و﴿مِّدْرَاراً﴾ بناء دالٌّ على التكثير؛ كمذكار للمرأة التي كثرت ولادتها للذكور؛ ومئناث للمرأة التي تلد الإناث؛ يُقال: درَّ اللّبنُ يدرُّ إذا أقبل على الحالب بكثرة. وانتصب ﴿مِّدْرَاراً﴾ على الحال. ﴿وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ﴾ أي: من تحت أشجارهم ومنازلهم؛ ومنه قول فرعون: ﴿وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ [الزخرف: ٥١] والمعنى: وسعنا عليهم النعم فكفروها. ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: بكفرهم فالذنوب سبب الإنتقام وزوال النعم. ﴿وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ﴾ أي: أوجدنا؛ فليحذر هؤلاء من الإهلاك أيضاً.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَـٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ﴾ الآية. المعنى: ولو نزلنا يا محمد بمرأى منهم كما زعموا وطلبوا كلاماً مكتوباً «في قرطاس». وعن ابن عباس: كتاباً معلّقاً بين السماء والأرض؛ وهذا يبيّن لك أن التنزيل على وجهين: أحدهما على معنى نزل عليك الكتاب بمعنى نزول الملك به. والآخر ولو نزلنا كتاباً في قرطاس يمسكه الله بين السماء والأرض؛ وقال: ﴿نَزَّلْنَا﴾ على المبالغة بطول مكث الكتاب بين السماء والأرض. والكتاب مصدر بمعنى الكتابة؛ فبيّن أن الكتابة في قرطاس؛ لأنه غير معقول كتابة إلاَّ في قرطاس أي: في صحيفة، والقرطاس الصحيفة؛ ويُقال: قُرْطاس بالضم؛ وقَرطَس فلان إذا رمى فأصاب الصحيفة الملزقة بالهَدف. ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ أي: فعاينوا ذلك ومسُّوه باليدّ كما اقترحوا وبالغوا في مَيْزه وتقليبه جساً بأيديهم، ليرتفع كل ارتياب ويزول عنهم كل إشكال، لعاندوا فيه وتابعوا كفرهم، وقالوا: سحر مبين إنما سكِّرت أبصارُنا وسُحِرنا؛ وهذه الآية جواب لقولهم: ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ﴾ فأعلم الله بما سبق في علمه من أنه لو نزل لكذّبوا به. قال الكَلْبيّ: نزلت في النَّضْر بن الحارث وعبد الله بن أبي أُميّة ونوفل بن خُويلد قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً﴾ [الإسراء: ٩٠] الآية.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَـٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ اقترحوا هذا أيضاً. و﴿لَوْلا﴾ بمعنى هَلاَّ. ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَّقُضِيَ الأَمْرُ﴾ قال ابن عباس: لو رأوا الملك على صورته لماتوا إذ لا يطيقون رؤيته. مجاهد وعِكْرمة: لقامت الساعة. قال الحسن وقَتادة: لأُهلكوا بعذاب الاستئصال؛ لأن الله أجرى سنّته

بأن من طلب آية فـأظهـرت له فلم يؤمن أهلكه الله في الحـال ﴿ثُمَّ لا يُنظَرُونَ﴾ أي: لا يُمهَلون ولا يؤخرون.

قولـه تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً﴾ أي: لا يستطيعون أن يروا الملك في صورته إلاَّ بعد التجسم بالأجـسام الكثيفة؛ لأن كل جنس يأنس بجنسـه وينفر من غير جنسه؛ فـلو جعل الله تعالى الرسول إلى البشر مـلكاً لنفروا من مقاربته، ولما أنسوا به، ولداخلـهم من الـرعب من كلامه والإتقاء لـه ما يكفُّهم عن كـلامه، ويمنعهم عن سؤالـه، فلا تَعمّ المصلحـة؛ ولو نقلـه عن صورة الملائكة إلى مثل صورتهم ليأنسوا به وليسكنوا إليه لقالوا: لست ملكاً وإنما أنت بشر فلا نؤمن بك وعادوا إلى مثل حالـهم. وكانت الملائكة تأتي الأنبياء في صـورة البشر فأتوا إبراهيم ولوطاً في صورة الآدميين، وأتى جبريل النبيّ عليـهما الصَّلاة والسَّلام في صـورة دِحْية الكَلْبي[1]. أي: لو نزل ملك لرآوه في صورة رجل كما جرت عـادة الأنبياء، ولو نزل على عادته لم يروه؛ فإذا جعلناه رجـلاً التبس عليهم فكانوا يقولون: هذا ساحر مـثلك. وقال الزّجاج: المعنى ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم﴾ أي: على رؤسائهم كمـا يلْبِسون على ضَعفـتهم، وكانوا يقولون لـهم: إنما محمـد بشر وليس بينه وبينكم فرق، فيلبسـون عليهم بهذا ويُشكّكونهم؛ فأعلمهم الله عزّ وجلّ أنه لو أنزل مَلكاً في صورة رجل لوجدوا سبيلاً إلى اللَّبْس كما يفعلون. واللَّبْس الخـلْط؛ يُقال: لَبَست عليـه الأمر أَلْبِسـه لَبْساً أي: خَلَطتـه؛ وأصلـه التّستـر بالثوب ونحوه. وقال: «لَبَسْنَا» بالإضافة إلى نفسه على جهة الخلق، وقال: ﴿مَّا يَلْبِسُونَ﴾ فأضاف إليهم على جهة الاكتساب. ثم قال مؤنساً لنبيه عليه الصَّلاة والسَّلام ومُعزِّياً: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ﴾ أي: نزل بأُمهم من العذاب ما أُهلكوا به جزاء استهزائهم بأنبيـائهم. حاق بالشيء يَحيق حَيْقاً وحُيُوقاً وحَيَقـاناً نزل؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣] و «ما» في قولـه: ﴿مَّا كَانُوا﴾ بمعنى الذي، وقيل: بمعنى المصدر: أي: حاق بهم عاقبة استهزائهم.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ۝١١ قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٢﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ أي: قل يا محمـد لهؤلاء المستهزئين المستـسخرين المكذبين: سافروا في الأرض فانظروا واستخبروا لتعـرفوا ما حلّ بالكفرة قبلكم من العقاب وأليم العذاب؛ وهذا السفـر مندوب إليه إذا كان على سبـيل الاعتبـار بآثار من خلا من الأُمم وأهل الديار، والعاقبـة آخر الأمر. والمكذّبون هنا من كذّب الحق وأهله لا من كذّب بالباطل.

ـقوله تعـالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ هـذا أيضاً احتجـاج عليهم؛ المـعنى قـل لهـم يا محمد: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ فإن قالوا لمن هو؟ فقل هو ﴿لِلَّهِ﴾؛ المعنى: إذا ثبت أن له ما في السَّموات والأرض، وأنه خالق الكل إما باعترافهم أو بقيام الحجة عليهم، فالله قادر على أن

(١) صحيح: البخاري (٣٦٣٤) في المناقب.

يُعاجلهم بالعـقاب، ويبعثـهم بعد الموت، ولكنه ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أي: وعد بها فـضلاً منه وكرمـاً، فلذلك أمهل. وذكر النفس هنا عـبارة عن وجوده، وتأكـيد وعده، وارتفـاع الوسائط دونه؛ ومعنى الكلام الاسـتعطاف منه تعالى للمتـولّين عنه إلى الإقبال إليه، وإخـبار منه سبحـانه بأنه رحيم بعباده لا يعجل عليـهم بالعقوبة، ويقبل منهم الإنابة والتوبة. وفي صحـيح مسلم عن أبي هُريرة قال قال رسول الله ﷺ: «لما قـضى الله الخلق كتب في كتاب على نفـسه فهو موضـوع عنده إن رحمتي تَغلب غضبي» [1] أي: لما أظهر قضاءه، وأبرزه لمن شاء، أظهر كتـاباً في اللوح المحفوظ أو فيما شاءه مقتضاه خبر حق ووعد صدق «إنّ رحمتي تغلب غضبي» أي: تسبقه وتزيد عليه.

قوله تعالى: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ اللام لام القسم، والنون نون التأكيد. وقـال الفرّاء وغيره: يجوز أن يكون تمام الكلام عند قوله: ﴿الرَّحْمَةَ﴾ ويكون ما بعـده مسـتأنفاً على جـهة التـبيين؛ فيـكون معنى ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ ليُمهلنكم وليؤخـرنّ جمعكم. وقيل: المعنى ليجمعـنكم أي: في القبور إلى اليوم الذي أنكروه. وقيل: ﴿إِلَىٰ﴾ بمعنى «في»، أي: ليجمعنكم في يوم القيامة. وقيل: يجوز أن يكون موضع ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ نصبـاً على البدل من الرحمـة؛ فتكون اللام بمعنى «أن» المعنى: كتب ربكم على نفـسه ليجمعنكم، أي: أن يجـمعكم؛ وكذلك قال كثير من الـنحويين في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ﴾ [يوسف: ٣٥] أي: أن يسجنوه. وقيل: مـوضعه نصب بـ ﴿كَتَبَ﴾؛ كما تكون «أن» في قوله عزّ وجلّ ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ﴾ وذلك أنه مفـسر للرحمة بالإمهال إلى يوم القيامة؛ عن الزجاج. ﴿لا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا شك فيه. ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ ابتداء وخبر، قاله الزجاج، وهو أجود ما قيل فيه؛ تقول: الذي يكرمني فله درهم، فالفاء تتضمن مـعنى الشرط والجزاء. وقال الأخـفش: إن شئت كان ﴿الَّذِينَ﴾ في موضع نصب على البدل من الكاف والميم في ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ أي: ليجمعن المشركين الذي خـسروا أنفسهم؛ وأنكره المبرّد وزعم أنه خطأ؛ لأنه لا يبدل من المخاطب ولا من المخاطب لا يُقال: مررت بك زيدٍ ولا مررت بي زيدٍ لأن هذا لا يُشكل فيُبيَّن. قال القُتَـبيّ: يجوز أن يكون ﴿الَّذِينَ﴾ جزاء على البدل من ﴿الْمُكَذِّبِينَ﴾ الذين تقدّم ذكرهم. أو على النعت لهم. وقيل: ﴿الَّذِينَ﴾ نداء مفرد.

﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: ثبت، وهذا احتجاج عليهم أيضاً. وقيل: نزلت الآية لأنهم قالوا: علمنا أنه مـا يحملك على ما تفـعل إلاّ الحاجة، فنحن نجمع لك من أمـوالنا حتى

(١) متفق عليه : وقد سبق .

تصير أغنانا [١] ؛ فقال الله تعالى: أخبرهم أن جميع الأشياء لله ، فهو قادر على أن يغنيني و﴿سَكَنَ﴾ معناه هدأ واستقر؛ والمراد ما سكن وما تحرك، فحُذف لعلم السامع. وقيل: خص الساكن بالذكر لأن ما يعمه السكون أكثر مما تعمه الحركة. وقيل: المعنى ما خلق، فهو عام في جميع المخلوقات متحركها وساكنها، فإنه يجري عليه الليل والنهار؛ وعلى هذا فليس المراد بالسكون ضد الحركة بل المراد الخلق، وهذا أحسن ما قيل؛ لأنه يجمع شتات الأقوال. ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لأصواتهم ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأسرارهم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ مفعولان؛ لما دعوه إلى عبادة الأصنام دين آبائه أنزل الله تعالى ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ أي: رباً ومعبوداً وناصراً دون الله. ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ بالخفض على النعت لاسم الله؛ وأجاز الأخفش الرفع على إضمار مبتدأ. وقال الزجاج: ويجوز النصب على المدح. أبو عليّ الفارسيّ: ويجوز نصبه على فعل مضمر كأنه قال: أترك فاطر السَّموات والأرض ؟ لأن قوله: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ يدل على ترك الولاية له، وحسن إضماره لقوة هذه الدلالة. ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ كذا قراءة العامة، أي: يَرزُق ولا يُرزَق؛ دليله قوله تعالى: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾[الذاريات: ٥٧] وقرأ سعيد بن جُبَير ومجاهد والأعمش: «وهو يُطْعِمُ وَلاَ يَطْعَمُ»، وهي قراءة حسنة؛ أي: أنه يرزق عباده، وهو سبحانه غير محتاج إلى ما يحتاج إليه المخلوقون من الغذاء. وقُرِئ بضم الياء وكسر العين في الفعلين، أي: إن الله يُطعم عباده ويرزقهم والوليّ لا يُطعِم نفسه ولا من يتخذه. وقُرِئ بفتح الياء والعين في الأوّل أي: الوليّ «ولا يطعم» بضم الياء وكسر العين. وخص الإطعام بالذكر دون غيره من ضروب الإنعام؛ لأن الحاجة إليه أمسُّ لجميع الأنام. ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ أي: استسلم لأمر الله تعالى. وقيل: أوّل من أخلص أي: من قومي وأُمّتي؛ عن الحسن وغيره. ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: وقيل لي: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ . ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ أي: بعبادة غيره أن يعذبني، والخوف توقع المكروه. قال ابن عباس: ﴿أَخَافُ﴾ هنا بمعنى أعلم. ﴿مَن يُصْرَفْ عَنْهُ﴾ أي: العذاب ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة ﴿فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ أي : فاز ونجا ورُحم.

وقرأ الكوفيون «مَّن يَصْرِفْ»[٢] بفتح الياء وكسر الراء، وهو اختيار أبي حاتم وأبي عُبيد؛ لقوله: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِّلَّهِ﴾ ولقوله: ﴿فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ ولم يقل رُحِم على المجهول، ولقراءة أبيّ «مَّن يُصْرَفْه اللّهُ عَنْهُ» ؛ واختار سيبويه القراءة الأُولى قراءة أهل المدينة وأبي عمرو قال سيبويه: وكلما قَلَّ الإضمار في الكلام كان أولى؛ فأما قراءة من قرأ «مَنْ يَصْرِفْ» بفتح الياء فتقديره: من يصرف الله عنه العذاب، وإذا قُرِئ ﴿مَن يُصْرَفْ عَنْهُ﴾ فتقديره: من يُصرَف عنه العذابُ. ﴿وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ أي: النجاة البيِّنة.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾

(١) واه جدًا : الواحدي (ص ١٧٦) في أسباب النزول، عن الكلبي وهو متروك.

(٢) قراءة سبعية متواترة : تقريب النشر (١٠٩).

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ﴾ المسُّ والكشف من صفات الأجسام، وهو هنا مجاز وتَوسُّع؛ والمعنى: إن تنزل بك يا محمد شدّة من فقر أو مرض فلا رافع وصارف له إلاّ هو، وإن يصبك بعافية ورخاء ونعمة ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من الخير والضر؛ روى ابن عباس قال: كنتُ رَدِيف رسول الله ﷺ فقال لي: «يا غلام أو يا بنيّ ألاَ أعلِّمك كلمات ينفعك الله بهنّ»؟ فقلت: بلى؛ فقال: «احفظ الله يحفظْك، احفظ الله تَجِدْه أمامك، تَعرَّف إلى الله في الرَّخاء يَعْرِفْك في الشدّة، إذا سألتَ فاسأل الله، وإذا استعنتَ فاستعِنْ بالله، فقد جَفَّ القلمُ بما هو كائنٌ، فلو أنّ الخلق كلهم جميعا أرادوا أن يضروك بشيء لم يَقضِه الله لك لم يقدروا عليه، واعمل لله بالشكر واليقين، واعلم أنّ في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً وأنّ النّصر مع الصّبر، وأن الفرَجَ مع الكَرْب، وأن مع العسر يسراً» أخرجه أبو بكر بن ثابت الخطيب في كتاب «الفصل والوصل» وهو حديث صحيح؛ وقد خرجه الترمذيّ (١) ، وهذا أتم.

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ۝١٨ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝١٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ القهر الغلبة، والقاهر الغالب، وأُقهِر الرجل إذا صير بحال المقهور الذليل؛ قال الشاعر:

تَمَنَّى حُصَيْنٌ أن يَسُودَ جِذاعُه فأمسى حُصَيْنٌ قد أذلَّ وأَقْهَرا

وقُهِر غُلب. ومعنى ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ فوقية الاستعلاء بالقهر والغلبة عليهم؛ أي: هم تحت تسخيره لا فوقية مكان؛ كما تقول: السلطان فوق رعيته أي: بالمنزلة والرفعة. وفي القهر معنى زائد ليس في القدرة، وهو منع غيره عن بلوغ المراد. ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ في أمره ﴿الْخَبِيرُ﴾ بأعمال عباده، أي: من اتصف بهذه الصفات يجب ألاّ يُشركَ به.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ وذلك أن المشركين قالوا للنبيّ ﷺ: من يشهد لك بأنك رسول الله فنزلت الآية؛ عن الحسن وغيره. ولفظ ﴿شَيْءٍ﴾ هنا واقع موقع اسم الله تعالى؛ والمعنى الله أكبر شهادة أي: انفراده بالربوبية، وقيام البراهين على توحيده أكبر شهادة وأعظم؛ فهو شهيد بيني وبينكم على أني قد بلّغتكم وصدَقت فيما قلته وادّعيته من الرسالة.

قوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ﴾ أي: والقرآن شاهد بنبوّتي. ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِ﴾ يا أهل مكة. ﴿وَمَن بَلَغَ﴾ أي: ومن بلغه القرآنُ. فحذف «الهاء» لطول الكلام. وقيل: ومن بلغ الحُلُم. ودلّ بهذا على أن من لم يَبلغ الحُلُم ليس بمخاطَب ولا مُتعبَّد. وتبليغ القرآن والسنة مأمور بهما، كما أمر النبي ﷺ بتبليغهما؛ فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧] وفي صحيح البخاريّ عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ: «بَلِّغُوا عني ولو آية وحَدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حَرَج ومن كَذَب

(١) صحيح: الترمذي (٢٥١٨) في صفة القيامة، وأحمد (١/ ٣٠٣)، وصححه الألباني.

عليّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار»(١). وفي الخبر أيضاً؛ من بلغته آية من كتاب الله فقد بلغه أمر الله أخذ به أو تركه(٢). وقال مقاتل: من بلغه القرآن من الجن والإنس فهو نذير له. وقال القرظيّ: من بلغه القرآن فكأنما قد رأى محمداً ﷺ وسمع منه. وقرأ أبو نهيك: « وَأَوحى إِلَيَّ هذا القرآن » مسمى الفاعل؛ وهو معنى قراءة الجماعة. ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ﴾ استفهام توبيخ وتقريع. وقرىء « أَئِنَّكُمْ » بهمزتين على الأصل. وإن خففت الثانية قلت: ﴿أَئِنَّكُمْ﴾. وروى الأصمعيّ عن أبي عمرو ونافع «آئِنَّكُمْ»؛ وهذه لغة معروفة، تُجعل بين الهمزتين ألفٌ كراهة لالتقائهما؛ قال الشاعر:

أَيَا ظبيةَ الوَعْسَاءِ بين جلاجِلٍ وَبَيْنَ النَّقَا آأَنْتِ أَمْ أُمُّ سَالِمِ

ومن قرأ: «إِنَّكُمْ» على الخبر فعلى أنه قد حقق عليهم شركهم. وقال: ﴿آلِهَةً أُخْرَىٰ﴾ ولم يقل: «أُخَر» ؛ قال الفراء: لأن الآلهة جمعٌ والجمع يقع عليه التأنيث؛ ومنه قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] وقوله ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾ [طه: ٥١] ولو قال: الأول والآخر صح أيضاً. ﴿قُل لَّا أَشْهَدُ﴾ أي: فأنا لا أشهد معكم فحذف لدلالة الكلام عليه، ونظيره ﴿فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٠].

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ يريد اليهود والنصارى الذين عرفوا وعاندوا وقد تقدّم معناه في «البقرة». و﴿الَّذِينَ﴾ في موضع رفع بالابتداء. ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ في موضع الخبر؛ أي: يعرفون النبي ﷺ؛ عن الحسن وقتادة، وهو قول الزجاج. وقيل: يعود على الكتاب، أي: يعرفونه على ما يدلّ عليه، أي: على الصفة التي هو بها من دلالته على صحة أمر النبي ﷺ. ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ في موضع النعت؛ ويجوز أن يكون مبتدأ وخبره ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ .

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ ابتداء وخبر أي: لا أحد أظلم ﴿مِمَّنِ افْتَرَىٰ﴾ أي: اختلق ﴿عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ يريد القرآن والمعجزات. ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ قيل: معناه في الدنيا؛ ثم استأنف فقال: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ على معنى واذكر «يوم نحشرهم». وقيل: معناه أنه لا يفلح الظالمون في الدنيا ولا يوم نحشرهم؛ فلا يوقف على هذا التقدير على قوله: ﴿الظَّالِمُونَ﴾ لأنه متصل. وقيل: هو متعلق بما بعده وهو «انظر» أي: انظر كيف كذبوا يوم نحشرهم؛ أي: كيف يكذبون يوم نحشرهم ؟.

(١) صحيح: البخاري (٣٤٦١) في أحاديث الأنبياء.
(٢) مرسل: عن قتادة. ابن أبي حاتم (٧١٦٦) في تفسيره.

﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ﴾ سؤال إفضـاح لا إفصاح. ﴿الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي: في أنهم شفعـاء لكم عند الله بزعمكم، وأنها تُقرّبكم منه زُلْفَى؛ وهذا توبيخ لهم. قـال ابن عباس: كل زعم في القرآن فهو كذبٌ.

﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ الفتنة الاختبار أي: لم يكن جوابهم حين اختبروا بهذا السؤال، ورأوا الحقائق، وارتفعت الدواعي ﴿إِلاَّ أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ تبرءوا من الشِّرك وانتفَوا منه لما رأوا من تجاوزه ومغفرته للمؤمنين. قال ابن عـباس: يغفر الله تعالى لأهل الإخلاص ذنوبهم، ولا يتعاظم عليـه ذنب أن يغفره، فإذا رأى المشركـون ذلك؛ قالوا إن ربنا يغفر الذنوب ولا يغـفر الشِّرك فتعالَوا نقول إنا كنا أهل ذنوب ولم نكن مشركين؛ فقال الله تعالى: أما إذْ كتموا الشِّرك فاختموا على أفواههم، فيـختم على أفواههم، فتنطق أيديهم وتشـهد أرجلهم بما كانوا يكسبـون، فعند ذلك يعرف المشركون أن الله لا يُكتَم حديثاً؛ فذلك قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢] وقال أبو إسحاق الزجاج: تأويل هذه الآية لطيف جداً، أخبر الله عزّ وجلّ بقصص المشـركين وافتتانهم بشركـهم، ثم أخبر أن فتنتـهم لم تكن حين رأوا الحقائق إلاَّ أن انتفوا من الشِّرك، ونظير هذا في اللغة أن ترى إنساناً يُحبُّ غاوياً فإذا وقع في هَلَكة تبرأ منه، فيقال: ما كـانت محبتـك إياه إلاَّ أن تبرأت منه. وقال الحـسن: هذا خاص بالمنافقين جـروا على عادتهم في الدنيا، ومعنى ﴿فِتْنَتُهُمْ﴾ عاقبة فتنتهم أي: كفرهم. وقال قَـتَادة: معناه معذرتهم. وفي صحيح مسلم من حديث أبي هُريرة قال: «فيلقى العـبدَ فيقول أي: فُلْ[1] ألم أُكرمْك وأُسودْك وأُزوّجْك وأُسخر لك الخيلَ والإبل وأذرْكَ تَرأس وتَربَع فيقول بلى أي: رب فيقـول أفظننت أنك مُلاقيّ فيقول لا فيقول إني أنساك كمـا نَسيتني ثم يلقى الثاني فيقـول له ويقول هو مثل ذلك بعينه ثم يلقى الثالث فـيقول له مثل ذلك فـيقـول يا رب آمنت بك وبكتابك وبرسـولك وصلَّيتُ وصُمتُ وتَصـدقتُ ويُثني بخيـر ما استطاع قال فـيقال ههنا إذاً ثم يقال له الآن نَبـعثُ شاهداً عليك ويتفكر في نفسـه من ذا الذي يشهد عليّ فيُخـتَم على فيه ويقال لفـخذه ولحمه وعظامه انطقي فـتنطق فخذُه ولحمه وعـظامه بعمله وذلك ليُعذِر من نفسه وذلك المنافق وذلك الذي سخط الله عليه»[2].

﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ كذب المشركين قولُهم: إن عبادة الأصنام تُقرِّبنا إلى الله زُلْفَى، بل ظَـنُّوا ذلك وظَنُّهُمْ الخطأ لا يُعـذرهم ولا يزيل اسم الـكذب عنهم، وكـذب المنافـقين باعتـذارهم بالباطل، وجحدهم نفـاقهم. ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: فانظر كيف ضلّ عنهم افتراؤهم أي: تَلاَشى وبطل ما كانوا يظنونه من شـفاعة آلهتهم. وقيل: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾

---

(١) هذا ترخيم لفلان.

(٢) صحيح: مسلم (٢٩٦٨) في الزهد.

أي: فارقهم ما كانوا يعبدون من دون الله فلم يغن عنهم شيئاً؛ عن الحسن. وقيل: المعنى عَزَب عنهم افتراؤهم لَدَهشهم، وذهول عقولهم. والنظر في قوله: «انظر» يراد به نظر الاعتبار؛ ثم قيل؛ ﴿كَذَبُوا﴾ بمعنى يكذبون، فعبّر عن المستقبل بالماضي؛ وجاز أن يكذبوا في الآخرة لأنه موضع دَهَش وحَيْرة وذهول عقل. وقيل: لا يجوز أن يقع منهم كذب في الآخرة؛ لأنها دار جزاء على ما كان في الدنيا وعلى ذلك أكثر أهل النظر وإنما ذلك في الدنيا؛ فمعنى ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ على هذا: ما كنا مشركين عند أنفسنا؛ وعلى جواز أن يكذبوا على أنفسهم في بعض المواطن قبل شهادة الجوارح على ما تقدّم. والله أعلم. وقال سعيد بن جُبَير في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ قال: اعتذروا وحَلَفوا؛ وكذلك قال ابن أبي نَجيح وقَتَادة: وروي عن مجاهد أنه قال: لما رأوا أن الذنوب تغفر إلا الشرك بالله والناسَ يخرجون من النار قالوا: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ وقيل: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ أي: علمنا أن الأحجار لا تضر ولا تنفع، وهذا وإن كان صحيحاً من القول فقد صَدَقوا ولم يكتموا، ولكن لا يُعذَرون بهذا؛ فإن المعاند كافر غير معذور. ثم قيل في قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ خمس قراءات: قرأ حمزة والكسائيّ «يكن» بالياء «فتنتهم» بالنصب خبر «يكن» ﴿إِلاَّ أَن قَالُوا﴾ اسمها أي: إلا قولُهم؛ فهذه قراءة بيّنة. وقرأ أهل المدينة وأبو عمرو «تكن» بالتاء ﴿إِلاَّ أَن قَالُوا﴾ أي: إلا مقالتُهم. وقرأ أُبيّ وابن مسعود «وما كان» بدل قوله ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن﴾ ﴿فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا﴾. وقرأ ابن عامر وعاصم من رواية حفص، والأعمش من رواية المفضّل، والحسن وقَتَادة وغيرهم ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن﴾ بالتاء ﴿فِتْنَتُهُمْ﴾ بالرفع اسم «تكن» والخبر ﴿إِلاَّ أَن قَالُوا﴾ فهذه أربع قراءات. الخامسة «ثُمَّ لَمْ يَكُن» بالياء «فِتْنَتُهُمْ»؛ رفع ويذكّر الفتنة لأنها بمعنى الفتون، ومثله ﴿فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَى﴾ [البقرة: ٢٧٥] ﴿وَاللَّهِ﴾ الواو واو القسم ﴿رَبِّنَا﴾ نعت لله عز وجل، أو بدل. ومن نصب فعلى النداء أي: يا ربَّنا وهي قراءة حسنة؛ لأن فيها معنى الاستكانة والتضرع، إلا أنه فَصَلَ بين القسم وجوابه بالمنادى.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ أفرد على اللفظ يعني المشركين كفار مكة. ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أي: فعلنا ذلك بهم مجازاة على كفرهم. وليس المعنى أنهم لا يسمعون ولا يفقهون، ولكن لما كانوا لا ينتفعون بما يسمعون، ولا ينقادون إلى الحق كانوا بمنزلة من لا يسمع ولا يفهم. والأكِنَّة الأغْطية جمع كِنَان مثل الأسِنَّة والسِّنان، والأعِنَّة والعِنان. كَنَنْت الشيء في كِنه إذا صنتَه فيه. وأكننت الشيء أخفيته. والكنانة معروفة. والكِنّة بفتح الكاف والنون امرأة أبيك؛ ويقال: امرأة الابن أو الأخ؛ لأنها في كِنّه. ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أي: يفهموه وهو في موضع نصب؛ المعنى كراهية أن يفهموه، أو لئلا يفهموه. ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ عطف عليه أي: ثِقلاً؛ يقال منه: وَقِرت أُذنُه ـ بفتح الواو ـ تَوْقَر وَقْراً أي: صَمَّت، وقياس مصدره التحريك إلا أنه جاء بالتسكين. وقد وَقَر الله أذنَه يَقِرها وَقْراً؛ يقال: اللهم قِرْ أذنَه. وحكى أبو زيد عن العرب: أذنٌ موقورة على ما لم يُسمّ فاعله؛ فعلى هذا

وُقِرَت ـ بضم الواو . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف «وِقْـراً» بكسر الواو؛ أي: جعل في آذانهم ما سدّها عن استمـاع القول على التشبيـه بوِقْر البعير، وهو مـقدار ما يطيق أن يحمل، والوِقْـر الحِمل؛ يقال منه: نخلة مُوقِر ومُوقِرة إذا كانت ذات ثمر كثير. ورجل ذُو قِرة إذا كان وَقوراً بفتح الواو؛ ويقال منه: وَقُر الرجل ـ بضم القاف ـ وقاراً، ووَقَر ـ بفتح القاف ـ أيضاً.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ أخبر الله تعالى بعنادهم لأنهم لما رأَوا القـمر منشقاً قالوا: سحر؛ فأخبر الله عز وجل بردّهم الآيات بغير حجة.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾ مجادلتهم قولهم: تأكلون ما قَتلتم، ولا تأكلون ما قَتل الله؛ عن ابن عباس. ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني قريشاً ؛ قال ابن عبـاس : قالوا للنَّضْر بن الحارث: ما يقول محمد ؟ قال: أرى تحريك شفتيـه وما يقول إلا أساطير الأوّلين، مثل ما أحدِّثكم عن القرون الماضيـة؛ وكان النّضر صـاحب قصص وأسفـار، فسمع أقـاصيص في ديار العـجم مثل قصـة رُسْتُم واسفنديار فكان يحدّثهم(١). وواحد الأساطير أَسْطَار كأبيـات وأبابيت؛ عن الزجاج. قال الأخفش: واحدها أُسْطُورة كـأُحدوثة وأحاديث. أبو عُـبيدة: واحـدها إسْطَارة. النحاس: واحـدها أُسْطُور مثل عُثْكُول. ويقال: هو جمع أَسْطَار، وأَسْطار جـمع سَطْر؛ يقال: سَطْر وسَطَرٌ. والسَّطر: الشيء الممتد المؤلف كسطر الكتـاب. القُشيري: واحـدها أسْطِير. وقيل: هو جمع لا واحـد له كمذاكيـر وعَباديد وأبابيل أي: ما سطره الأولون في الكتب. قال الجوهريّ وغيره: الأساطير الأباطيل والتُّرهات.

قلت: أنشدني بعض أشياخي:

تَطاولَ ليلي واعترتني وَسَاوِسي لآتٍ أتَى بالتُّرُّهات الأباطيل

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ النَّهي الزجر، والنأيُ البعد، وهو عام في جميع الكفار أي: ينهون عن اتباع محمد ﷺ، وينأون عنه؛ عن ابن عباس والحسن. وقيل: هو خاص بأبي طالب ينهى الكفار عن إذاية مـحمد ﷺ، ويتباعـد عن الإيمان به؛ عن ابن عباس أيضـاً. وروى أهلُ السِّير قال: كان النبيّ ﷺ قـد خرج إلى الكعبة يوماً وأراد أن يصلي، فلما دخل في الصـلاة قال أبو جهل لعنه الله : من يقوم إلى هذا الرجل فيـفسد عليه صلاته. فقام ابن الزِّبَعْرَى فـأخذ فَرَثا ودماً فَلَطَّخَ به وجه النبي ﷺ؛ فانفـتل النبيّ ﷺ من صلاته، ثم أتى أبا طالب عَمَّه فـقال: «يا عمّ ألا ترى إلى ما فُعِل بي؟» فقـال أبو طالب : من فعل هذا بك ؟ فقال النبي ﷺ : « عبد الله بن الـزِّبَعْرَى » ؛ فقام أبو طالب ووضع سيـفه على عاتقه ومـشى معه حتـى أتى القوم؛ فلما رأَوا أبا طالب قد أقـبل جعل القوم ينهضون؛ فقـال أبو طالب: والله لئن قام رجل جَلَّلْتُهُ بسيفي فقعـدوا حتى دنا إليهم، فقال؛ يا بنيّ من الفـاعل بك هذا ؟ فـقال: «عـبد الله بن الـزِّبَعْرَي»؛ فـأخذ أبو طالـب فَرْثاً ودمـاً فلطَّخَ به وجوههم ولحاهم وثيـابهم وأساء لهم القول؛ فنزلت هذه الآية ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ فقال النبي

---

(١) سبق تضعيفه في سورة البقرة ، وهو مـروي من طريق أبي صالح وهو كذاب عن ابن عباس كـما عند الواحدي (ص١٧٦) في أسباب النزول.

ﷺ: «يا عمّ نزلت فيك آية» قـال: وما هي ؟ قال: «تمنع قريشاً أن تؤذيني وتـأبى أن تؤمن بي» فقال أبو طالب:

والله لن يَصلُوا إليك بجمـعـهم ... حـتّى أُوسَّدَ في التُّراب دَفـينَا
فاصـدَعْ بأمرك مـا عليكَ غضـاضةٌ ... وابْشـرْ بذاك وقَـرَّ مـنك عُـيـونَا
ودَعـوتَني وزعـمـت أنك ناصـحي ... فلقـد صَـدَقتَ وكنـتَ قـبلُ أمـينَا
وَعَـرضتَ ديناً قـد عـرفـتُ بأنّهُ ... من خَـيـر أديان البـريَّة دينـا
لولا الملامـةُ أو حِـذارُ مَـسَـبَّـة ... لوجَـدْتَني سَـمْحـاً بذاكَ يَقـيناً (١)

فقالوا: يا رسول الله هل تنفع أبا طالب نصـرته ؟ قال: «نعم دفع عنه بذاك الغُلّ ولم يقرَن مع الشيـاطين ولم يَدخل في جُبّ الحيّـات والعقارب إنما عـذابه في نعلين من نار في رجليه يغلي منهـما دماغه في رأسه وذلك أهون أهل النار عذاباً»(٢). وأنزل الله على رسوله ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] وفي صحيح مسلم عن أبي هُريرة قـال: قال رسول الله ﷺ لعمه: «قل: لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة» قـال: لولا تُعيِّرني قريش يقولون: إنما حمله على ذلك الجزَع لأقـررتُ بها عـينك؛ فـأنزل الله تعـالى: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ (٣) [القصص: ٥٦] كذا الرواية المشـهورة «الجزَع» بالجيم والزاي ومـعناه الخوف. وقال أبو عُبـيد: «الخرَع» بالخاء المنقوطة والراء المهـملة. قال يعني الضّعف والخَوَر، وفي صحيح مسـلم أيضاً عن ابن عباس قال قال رسـول الله ﷺ: «أهونُ أهل النار عذاباً أبو طالب وهو منتعل بنعلين من نار يغـلي منهما دماغه» (٤). وأما عبد الله بن الزِّبَعْري فإنه أسلم عام الفـتح وحَسُن إسلامه، واعتذر إلى رسول الله ﷺ فقبل عذره؛ وكان شاعراً مجيداً؛ فقـال يمدح النبيّ ﷺ، وله في مدحه أشعار كثيرة ينسخ بها ما قد مضى في كفره؛ منها قوله:

مَنـع الرُّقـــادَ بَـلابلٌ وهُـمــومُ ... واللّيـلُ مُـعْـتَلِجُ الرِّواق بَـهِـيمُ
مِـمّـا أتاني أنّ أحـمـد لاَمَني ... فيـه فـبِتّ كـأنّني مَـحْـمُـومُ
يا خـيرَ من حَـمَلَت على أوْصَالِهَـا ... عَـيْـرَانةٌ سُـرُحُ اليـدينِ غَـشُـومُ
إنّي لمـعـتــذرٌ إليكَ مـن الّذي ... أسْـدَيْت إذْ أنَا في الضّـلال أهيمُ
أيامَ تـأمُـرني بـأغْـوَى خُـطّة ... سَـهْـمٌ وتأمُـرني بـهـا مَـخْـزُومُ
وأَمُدُّ أسـبـابَ الرَّدَى ويَقـودُني ... أمـرُ الغُـواة وأمْـرُهم مَشْـئُـومُ
فـاليـومَ آمـنَ بالنبيّ مُـحـمَّـد ... قَلْـبي ومُـخْطِـئُ هذه مَـحْـرُومُ
مَـضَتِ العداوةُ فـانقضتْ أسـبابُهـا ... وأتَـتْ أوَاصِـــر بيـننـا وحُلُـومُ

(١) هذا الخبر بعضه عند الحاكم (٢/ ٣١٥) في المستدرك وصححه ووافقه الذهبي، وانظر: أسباب النزول (ص ١٧٦) للواحدي.
(٢) سيأتي هذا الجزء صحيحًا دون هذه القصة الطويلة.
(٣) متفق عليه: البخاري (٤٧٧٢) في التفسير، ومسلم (٢٤) في الإيمان عن المُسيّب بن حزن والد سعيد رضي الله عنه.
(٤) صحيح: مسلم (٢١٢) في الإيمان.

فاغفرْ فِدًى لكَ والدَايَ كلاهُمَا ... زَلَلي فإنّكَ راحمٌ مَرْحومُ
وعليكَ من سِمَةِ المَليك عَلاَمَةٌ ... نُورٌ أغرُّ وخاتم مَخْتومُ
أعطاكَ بعدَ مَحبَّةٍ بُرْهانَهُ ... شَرَفاً وبُرْهَانُ الإله عَظيمُ
ولقد شَهِدتُ بأنّ دينكَ صادقٌ ... حَقّاً وأنَّكَ في العباد جَسيمُ
واللَّهُ يشهَدُ أنّ أحمدَ مُصْطفًى ... مُستقبَلٌ في الصّالحين كَريمُ
قَرْمٌ علاَ بنيانُه من هاشمٍ ... فَرْعٌ تَمكَّنَ في الذُّرَى وأَرُومُ

وقيل: المعنى ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ أي: هؤلاء الذين يستمعون ينهون عن القرآن ﴿وَيَنْئَوْنَ عَنْهُ﴾. عن قَتَادة؛ فالهاء على القولين الأوّلين في ﴿عَنْهُ﴾ للنبي ﷺ، وعلى قول قَتَادة للقرآن. ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ﴾ «إن» نافية أي: وما يهلكون إلاّ أنفسهم بإصرارهم على الكفر، وحملهم أوزار الذين يَصدُّونهم.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ أي: إذ وُقفوا غداً، و «إذْ» قد تستعمل في موضع «إذا» و «إذا» في موضع «إذْ» وما سيكون فكأنه كان؛ لأن خبر الله تعالى حقّ وصدق، فلهذا عَبَّر بالماضي. ومعنى ﴿إِذْ وُقِفُوا﴾ حبسوا يُقال: وَقَفته وَقْفاً فوَقَف وُقوفاً. وقرأ ابن السَّمَيْقع «إِذْ وَقَفُوا» بفتح الواو والقاف من الوقوف. ﴿عَلَى النَّارِ﴾ أي: هم فوقها على الصراط وهي تحتهم. وقيل: «على» بمعنى الباء؛ أي: وَقَفوا بقربها وهم يُعاينونها. وقال الضّحاك: جُمعوا؛ يعني على أبوابها. ويُقال: وُقفوا على مَتْن جهنم والنار تحتهم. وفي الخبر: أن الناس كلهم يُوقفون على مَتْن جهنم كأنها مَتْن إهَالَة، ثم يُنادي منادٍ خُذي أصحابك ودَعِي أصحابي. وقيل: «وقفوا» دخلوها أعاذنا الله منها فعلى بمعنى «في» أي: وقفوا في النار. وجواب «لو» محذوف ليذهب الوهم إلى كل شيء فيكون أبلغ في التخويف؛ والمعنى: لو تراهم في تلك الحال لرأيت أسوأ حال، أو لرأيت منظَراً هائلاً، أو لرأيت أمراً عجباً وما كان مثل هذا التقدير.

قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالرفع في الأفعال الثلاثة عطفاً قراءة أهل المدينة والكسائيّ؛ وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم بالضم. ابن عامر على رفع «نكذّبُ» ونصب ﴿وَنَكُونَ﴾ [1] وكله داخل في معنى التمني؛ أي: تَمَنَّوا الردّ وألاّ يُكذبوا وأن يكونوا من المؤمنين. واختار سيبويه القطع في «وَلا نكذّبُ» فيكون غير داخل في التمني؛ المعنى: ونحن لا نُكذّبُ على معنى الثبات على ترك التكذيب؛ أي: لا نكذبُ رُددنا أو لم نُردّ؛ قال سيبويه: وهو مثل قوله دعني ولا أعود أي: لا أعود على كل حال تركتني أو لم تتركني. واستدل أبو عمرو على خروجه من التمني بقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ لأن الكذب لا يكون في التمني إنما يكون في

(١) قراءتان سبعيتان متواترتان: تقريب النشر (ص ١٠٩).

الخبر. وقال من جعله داخلاً في التمني: المعنى وإنهم لكاذبون في الدنيا في إنكارهم البعث وتكذيبهم الرسل. وقرأ حمزة وحفص بنصب ﴿نُكَذِّبَ﴾ و﴿نَكُونَ﴾ جواباً للتمني؛ لأنه غير واجب، وهما داخلان في التمني على معنى أنهم تمنَّوا الرد وترك التكذيب والكون مع المؤمنين. قال أبو إسحاق: معنى ﴿وَلَا نُكَذِّبَ﴾ أي: إن رُددنا لم نكذب. والنصب في «نكذب» و«نكونَ» بإضمار «أنْ» كما ينصب في جواب الاستفهام والأمر والنهي والعَرْض؛ لأن جميعه غير واجب ولا واقع بعد، فينصب الجواب مع الواو كأنه عطف على مصدر الأوّل؛ كأنهم قالوا: يا ليتنا يكون لنا رَدٌّ، وانتفاءٌ من الكذب، وكَونٌ من المؤمنين؛ فحملا على مصدر ﴿نُرَدُّ﴾ لانقلاب المعنى إلى الرفع، ولم يكن بدّ من إضمار «أنْ» فيه يتم النصب في الفعلين. وقرأ ابن عامر ﴿وَنَكُونَ﴾ بالنصب على جواب التمني كقولك: ليتك تصير إلينا ونكرمك، أي: ليت مصيرك يقع وإكرامنا يقع، وأدخل الفعلين الأوّلين في التمني، أو أراد: ونحن لا نكرمك على القطع على ما تقدّم؛ يحتمل. وقرأ أبيّ: «وَلاَ نكذب بآيات ربنا أبداً». وعنه وابن مسعود « يَالَيْتَنَا نُرَدُّ فَلا نُكَذِّبَ » بالفاء والنصب، والفاء ينصب بها في الجواب كما ينصب بالواو؛ عن الزجاج. وأكثر البصريين لا يجيزون الجواب إلاَّ بالفاء.

﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾

قوله تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ بل إضراب عن تَمنّيهم وادّعائهم الإيمان لو رُدّوا. واختلفوا في معنى ﴿بَدَا لَهُم﴾ على أقوال بعد تعيين مَن المراد؛ فقيل: المراد المنافقون لأن اسم الكفر مشتمل عليهم، فعاد الضمير على بعض المذكورين؛ قال النحاس: وهذا من الكلام العَذْب الفصيح. وقيل: المراد الكفار وكانوا إذا وعظهم النبيّ ﷺ خافوا وأخفوا ذلك الخوف لئلا يَفْطَن بهم ضعفاؤهم، فيظهر يوم القيامة؛ ولهذا قال الحسن: «بَدَا لَهُمْ» أي: بدا لبعضهم ما كان يُخفيه عن بعض. وقيل: بل ظهر لهم ما كانوا يجحدونه من الشِّرك فيقولون: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فينطق الله جوارحهم فتشهد عليهم بالكفر فذلك حين ﴿بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾. قاله أبو رَوْق. وقيل: ﴿بَدَا لَهُم﴾ ما كانوا يكتمونه من الكفر؛ أي: بدت أعمالهم السيئة كما قال: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧] قال المبرّد: بدا لَهُم جزاء كفرهم الذي كانوا يخفونه. وقيل: المعنى بل ظهر للذين اتبعوا الغُواة ما كان الغُواة يخفون عنهم من أمر البعث والقيامة؛ لأن بعده ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا﴾ قيل: بعد معاينة العذاب. وقيل: قبل معاينته. ﴿لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ أي: لصاروا ورَجعوا إلى ما نُهوا عنه من الشِّرك لعلم الله تعالى فيهم أنهم لا يؤمنون، وقد عاين إبليس ما عاين من آيات الله ثم عاند. قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ إخبار عنهم، وحكاية عن الحال التي كانوا عليها في الدنيا من تكذيبهم الرسل، وإنكارهم البعث؛ كما قال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ﴾ [النحل: ١٢٤] فجعله حكاية عن الحال الآتية. وقيل: المعنى وإنهم لكاذبون فيما أخبروا به عن أنفسهم من أنهم لا يكذبون ويكونون من المؤمنين. وقرأ يحيى بن وَثَّاب: « وَلَوْ رِدُّوا » بكسر الراء؛ لأن الأصل رُدِدوا فنقلت كسرة الدال على الراء.

﴿ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ ابتداء وخبر و «إن» نافية ﴿وَمَا نَحْنُ﴾ «نحن» اسم «ما» و ﴿بِمَبْعُوثِينَ﴾ خبرها؛ وهذا ابتداء إخبار عنهم عما قالوه في الدنيا. قال ابن زيد؛ هو داخل في قوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ أي: لعادوا إلى الكفر، واشتغلوا بلذة الحال. وهذا يحمل على المعاند كما بيّناه في حال إبليس، أو على أن الله يَلْبس عليهم بعدما عَرَفوا، وهذا شائع في العقل.

﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ ﴿وُقِفُوا﴾ أي: حُبِسوا ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: على ما يكون من أمر الله فيهم. وقيل: ﴿عَلَى﴾ بمعنى «عند» أي: عند ملائكته وجزائه؛ وحيث لا سلطان فيه لغير الله عزّ وجلّ؛ تقول: وقفت على فلان أي: عنده؛ وجواب «لو» محذوف لعظم شأن الوقوف. ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ تقرير وتوبيخ أي: أليس هذا البعث كائناً موجوداً؟! ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ ويؤكدون اعترافهم بالقسَم بقولهم: ﴿وَرَبِّنَا﴾. وقيل: إن الملائكة تقول لهم بأمر الله أليس هذا البعث وهذا العذاب حقاً؟ فيقولون: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ إنه حق. ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

﴿ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ قيل: بالبعث بعد الموت وبالجزاء؛ دليله قوله عليه السَّلام: «مَن حَلَف على يمين كاذبة ليقتَطعَ بها مال امرئ مسلم؛ لقي اللَّهَ وهو عليه غضبان»(١) أي: لقي جزاءه؛ لأن من غضب عليه لا يرى الله عند مثبتي الرؤية، ذهب إلى هذا القَفَّال وغيره؛ قال القُشَيْريّ: وهذا ليس بشيء؛ لأن حمل اللقاء في موضع على الجزاء لدليلٍ قائم لا يوجب هذا التأويل في كل موضع، فليحمل اللقاء على ظاهره في هذه الآية؛ والكفار كانوا ينكرون الصانع، ومنكِر الرؤية منكر للوجود.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ سميت القيامة بالساعة لسرعة الحساب فيها. ومعنى ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة؛ يقال: بَغَتهم الأمرُ يَبْغَتُهُمْ بَغْتاً وبَغْتَةً. وهي نصب على الحال، وهي عند سيبويه مصدر في موضع الحال، كما تقول: قتلته صَبْراً. وأنشد:

فَلأيّاً بِلأيٍّ ما حَمَلْنَا وَلِيدَنا ... على ظَهْرِ مَحْبُوكٍ ظِمَاءٍ مَفَاصِلُهُ

ولا يجيز سيبويه أن يقاس عليه؛ لا يقال: جاء فلان سُرْعةً.

---

(١) صحيح؛ وقد سبق.

قولـه تعالى: ﴿قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا﴾ وقع النداء على الحسرة وليست بمنادى في الحـقيقة، ولكنه يدل على كثرة التّـحسر، ومثلـه يا للعـجب ويا للرخاء وليسا بمنـادين في الحقيقة، ولكنه يـدل على كثرة التعجب والرخاء؛ قال سيبويه: كأنه قال يا عـجبُ تَعالَ فهذا زمن إتيانك؛ وكذلك قولك يا حسرتي أي: يا حسرتا تعالي فهذا وقتك؛ وكـذلك ما لا يصح نداؤه يجري هذا المجرى، فهذا أبلغ من قولك تعجبت. ومنه قول الشاعر:

فيا عجباً من رَحْلِها المتحمَّلِ

وقيل: هو تنبيه للناس على عظيم ما يحلّ بهم من الحسرة؛ أي: يا أيها الناس تنبَّهوا على عظيم ما بي من الحسرة. فوقع النداء على غير المنادى حقـيقة؛ كقولك: لا أرينّك ها هنا. فيقع النهي على غير المنهي في الحقيقة.

قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ أي: في السّاعة، أي: في التقدمة لها؛ عن الحسن. و﴿فَرَّطْنَا﴾ معناه ضـيعنا وأصله التـقدّم يقـال: «فَرَط فلان أي: تقـدّم وسبق إلى الماء، ومنه: «أنا فَـرَطكم على الحوض»[1]. ومنه الفَـارِط أي: المتقدّم للمـاء، ومنه في الدعاء للصـبي اللهم اجعله فَـرَطا لأبويه؛ فقولهم: ﴿فَرَّطْنَا﴾ أي: قدمناه العجز. وقيل: ﴿فَرَّطْنَا﴾ أي: جعلناه غيرنا الفارط السابق لنا إلى طاعة الله وتَخَلَّفنا. ﴿فِيهَا﴾ أي: في الدنيا بترك العمل للساعة. وقال الطَّبري: (الهاء) راجعة إلى الصَّفْقة، وذلك أنهم لما تَبيّن لهم خسران صَفْقتـهم ببيعهم الإيمان بالكفر، والآخرة بالدنيا. ﴿قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ أي: في الصَّفْقة، وترك ذكرها لدلالة الكلام عليها؛ لأن الخسران لا يكون إلا في صفْقة بيع؛ دليله قوله: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ﴾ [البقرة: ١٦]. وقال السُّـدي: على ما ضيَّـعنا أي: من عمل الجنة. وفي الخبر عن أبي سعيد الخُدْري عن النبي ﷺ في هذه الآية قال: «يرى أهل النار منازلهم في الجنة فيقولون: ﴿يَا حَسْرَتَنَا﴾» [2].

قوله تـعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾ أي: ذنوبهم جمع وِزر. ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ مجـاز وتوسّع وتشبـيه بمن يحمل ثِقْـلاً؛ يقال منه: وَزَرَ يَزِر، ووَزِرَ يُوزَر فهـو وازر ومَوْزور؛ وأصله من الوَزَر وهو الجبل. ومنه الحديث في النساء اللواتي خرجن في جنازة: «ارجـعن مَوْزورات غيرَ مأجورات»[3] قال أبو عبـيد: والعامـة تقول: «مأزورات» كـأنه لا وجه له عنده؛ لأنه من الوِزر. قـال أبوعبيـد: ويقال للرجل إذا بسط ثوبه فجعل فيه المتـاع أحمل وِزْرك أي: ثِقْلك. ومنه الوزير لأنه يحمل أثقال ما يُسنَد إليه من تدبير الولاية: والمعنى أنهم لزمتهم الآثام فصاروا مثقلين بها. ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي: ساء أسوأ الشيء الذي يحملونه.

---

(١) متـفق عليه : البخاري (٦٥٧٥) في الرقـاق ، ومسلم (٢٢٩٢) في الفضـائل ، وله عدة روايات هناك : عن عبد الله بن مسعود، وسهل بن سعد، وجندب البجلـي، وعقبة بن عامر، وجابر بن سمره ،وأم سلمة رضي الله عنهم جميعًا.

(٢) صححه السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٢٦٢)، وعـزاه للطبري (٧/ ١٩٠) في تفسيره وابن أبي حاتم (٤/ ١٢٨٠) في تفسيره.

(٣) ضعيف : وقد سبق .

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ٣٢﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أي: لقصر مدّتها كما قال:

أَلاَ إنما الدُّنْيَا كأحـــلامِ نائم ... وما خيرُ عيشٍ لا يكونُ بدائم
تَأَمَّلْ إذا ما نلتَ بالأمس لَذَّةً ... فأفنيتَها هل أنت إلاّ كحـالمِ

وقال آخر:

فاعـمـلْ على مَهـلٍ فـإنك ميِّت ... واكدح لنفسك أيُّها الإنسانُ
فكأنّ ما قد كان لم يكُ إذ مَضَى ... وكأنّ ما هــو كائنٌ قد كانا

وقيل: المعنى متاعُ الحياة الدنيا لعبٌ ولهوٌ؛ أي: الذي يشتهونه في الدنيا لا عاقبة له، فهو بمنزلة اللعب واللهو. ونظر سليمان بن عبدالملك في المرآة فقال: أنا الملك الشاب؛ فقالت له جارية له:

أنتَ نِعْمَ المتاع لو كنتَ تَبْقَى ... غير أَنْ لا بقاءَ للإنســـانِ
ليس فيما بَدَا لنا منـكَ عيبٌ ... كان في النّاس غير أنّك فَاني

وقيل: معنى ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ باطل وغرور، كما قال: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] فالمقصد بالآية تكذيب الكفّار في قولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾. واللعب معروف، والتِّلْعابة الكثير اللعب، والمَلْعَب مكان اللعب؛ يقال: لَعِب يَلْعَب. واللّهو أيضاً معروف، وكل ما شَغَلك فقد ألهاك، ولَهَوت من اللهـو، وقيل: أصله الصَرف عن الشيء؛ من قولهم: لَهَيتُ عنه؛ قال المهدوي: وفيه بعدٌ؛ لأن الذي معناه الصّرف لامه ياء بدليل قولهم: لهْيَانُ، ولام الأول واو.

الثانية ليس من اللّهو واللّعب ما كان من أمور الآخرة. فـإن حقيقة اللّعب ما لا ينتفع به واللّهو ما يُلتهى به، وما كان مراداً للآخرة خارج عنهما؛ وذمّ رجل الدنيا عند علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال علي: الدنيا دار صدق لمن صَدَقَهـا، ودار نجاة لمن فهِم عنها، ودار غِنىً لمن تزود منها. وقال محمود الورّاق:

لا تُتبِع الدُّنيا وأيامَهـــا ... ذماً وإنْ دارتْ بك الدائرهْ
من شرف الدُّنيا ومن فضلِها ... أن بها تُســتدركُ الآخرهْ

وروى أبو عمـر بن عبدالبر عن أبي سـعيد الخدري قـال: قال رسول الله ﷺ: «الدنيـا ملعونةٌ ملعونٌ ما فـيها إلا ما كان فيـها من ذكر الله أو أدَّى إلى ذكر الله والعالم والمتـعلم شريكان في الأجر وسائر الناسَ هَمَجٌ لا خـير فيه» وأخرجـه التّرمذي عن أبي هُريرة وقال: حـديث حسن غريب (١).

وروى عن النبي ﷺ أنه قـال: «من هَوَان الدُّنيـا على الله ألاَ يُعصَـى إلا فيـها ولا يُنالُ مـا عنده إلا بتركها»(٢). وروى التِّرمذي عن سَهْل بن سعد قـال قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا تَعدِل عند

(١) كذا في الاستذكـار (٤١٢٦٦) لابن عبد البر. والقطعة الأولى منه بسند حـسن عند الترمذي (٢٣٢٢) في الزهد بتحسين الألباني رحمه الله.

(٢) هذا حديث بمعناه لا بلفظه والله أعلم.

الله جناحَ بَعوضة ما سَقَى كافراً منها شَرْبَةَ ماء»[١] . وقال الشاعر:

تَسمَّعْ من الأيام إن كنتَ حازما ... فإنّك منـــــــها بين ناهٍ وآمرِ
إذا أبقت الدنيا على المـــرء دينه ... فما فات من شيء فليس بضائر
ولن تَعدَل الدنيا جناحَ بَعوضـــةٍ ... ولا وَزْن زِفٍّ مـــن جناحِ لطائر
فما رِضى الدنيا ثواباً لمؤمـــــنٍ ... ولا رِضى الدنيا جـــــزاءً لكافر

وقال ابن عباس: هذه حياة الكافر لأنه يُزَجِّيها في غرور وباطل، فأما حياة المؤمن فتنطوي على أعمال صالحة، فلا تكون لهواً ولعباً.

قوله تعالى: ﴿وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ﴾ أي: الجنة لبقائها؛ وسميت آخرة لتأخرها عنا، والدنيا لدنوها منا.

وقرأ ابن عامر « وَلَدَارُ الآخِرَةِ »[٢] بلام واحدة؛ والإضافة على تقدير حذف المضاف وإقامة الصفة مقامه، التقدير: ولدار الحياة الآخرة. وعلى قراءة الجمهور ﴿وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ﴾ اللام لام الابتداء، ورفع الدار بالابتداء، وجعل الآخرة نعتاً لها والخبر ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ﴾ يقويه ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ﴾ [القصص: ٨٣] ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤] فأتت الآخرة صفة للدار فيهما. ﴿لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أي: الشرك. ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ قرئ بالياء والتاء؛ أي: أفلا يعقلون أن الأمر هكذا فيزهدوا في الدنيا. والله أعلم.

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِي الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ كسرت «إنّ» لدخول اللام. قال أبو ميسرة: إن رسول الله ﷺ مَرَّ بأبي جهل وأصحابه فقالوا: يا محمد والله ما نُكذِّبك وإنك عندنا لصادق، ولكن نُكذِّب ما جئتَ به؛ فنزلت[٣] هذه الآية: ﴿فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ ثم آنسه بقوله: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ الآية. وقرىء «يُكَذِّبُونَكَ»؛ مخففاً ومشدّداً؛ قيل: هما بمعنى واحد كحزنته وأحزنته؛ واختار أبو عُبيد قراءة التخفيف، وهي قراءة علي رضي الله عنه؛ وروى عنه أن أبا جهل قال للنبي ﷺ: إنا لا نكذّبك ولكن نكذّب ما جئت به؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ﴾ . قال النحاس وقد خولف أبو عُبيد في هذا. وروى: لاَ نُكذبك. فأنزل الله عز وجل: ﴿لا يُكَذِّبُونَكَ﴾ . ويقوّي هذا أن رجلاً قرأ على ابن عباس ﴿فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ﴾ مخففاً فقال له ابن عباس ﴿يُكَذِّبُونَكَ﴾ ؛ لأنهم كانوا يسمون النبي ﷺ: الأمين. ومعنى ﴿يُكَذِّبُونَكَ﴾ عند أهل اللغة

(١) صحيح: الترمذي (٢٣٢٠) في الزهد، وصححه الألباني هناك.
(٢) قراءة سبعية متواترة: تقريب النشر (ص ١٠٩).
(٣) مرسل: الواحدي (ص ١٧٨) في أسباب النزول، وأبو ميسرة هذا تابعي جليل.

ينسبونك إلى الكذب؛ ويردون عليك ما قلت. ومعنى ﴿لا يُكَذِّبُونَكَ﴾ أي: لا يجدونك تأتي بالكذب؛ كما تقول: أكذبته وجدته كذّاباً، وأبخلته وجدته بخيلاً، أي: لا يجدونك كذّاباً إن تدبّروا ما جئت به. ويجوز أن يكون المعنى: لا يثبتون عليك أنك كاذب؛ لأنه يقال: أكذبته إذا احتججت عليه وبيّنت أنه كاذب. وعلى التشديد: لا يكذّبونك بحجة ولا برهان؛ ودل على هذا ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾. قال النحاس: والقول في هذا مذهب أبي عبيد، واحتجاجه لازم؛ لأن علياً كرم الله وجهه هو الذي روى الحديث، وقد صح عنه أنه قرأ بالتخفيف؛ وحكى الكسائي عن العرب: أكذبت الرجل إذا أخبرت أنه جاء بالكذب ورواه، وكذّبته إذا أخبرت أنه كاذب؛ وكذلك قال الزجاج: كذّبته إذا قلت له كذبت، وأكذبته إذا أردت أن ما أتى به كذب.

قوله تعالى: ﴿فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا﴾ أي: فاصبر كما صبروا. ﴿وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ أي: عوننا، أي: فسيأتيك ما وُعدت به. ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ مبين لذلك النصر؛ أي: ما وعد الله عز وجل به فلا يقدر أحد أن يدفعه؛ لا ناقض لحكمه، ولا خلف لوعده؛ و﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨] ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: ٥١] ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣] ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١] ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ فاعل ﴿جَاءَكَ﴾ مضمر؛ المعنى: جاءك من نبإ المرسلين نبأٌ.

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٥)﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ أي: عظم عليك إعراضهم وتوليهم عن الإيمان. ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ﴾ قدرت ﴿أَن تَبْتَغِيَ﴾ تطلب ﴿نَفَقًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: سَرَباً تخلص منه إلى مكان آخر، ومنه النافقاء لجحر اليَرْبُوع، وقد تقدّم في «البقرة» بيانه، ومنه المنافق وقد تقدم. ﴿أَوْ سُلَّمًا﴾ معطوف عليه، أي: سبباً إلى السماء؛ وهذا تمثيل لأن السّلم الذي يُرْتقى عليه سبب إلى الموضع، وهو مذكّر، ولا يُعرف ما حكاه الفرّاء من تأنيث السّلم. قال قَتَادة: السلم الدَّرج. الزجاج: وهو مشتق من السلامة كأنه يسلمك إلى الموضع الذي تريد. ﴿فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ﴾ عطف عليه أي: ليؤمنوا فافعل؛ فأُضمر الجواب لعلم السامع. أمر الله نبيه ﷺ ألا يشتدّ حزنه عليهم إذا كانوا لا يؤمنون؛ كما أنه لا يستطيع هداهم. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ أي: لخلقهم مؤمنين وطبعهم عليه؛ بيّن تعالى أن كفرهم بمشيئة الله ردّا على القدَرية. وقيل المعنى: أي: لأراهم آية تضطرهم إلى الإيمان، ولكنه أراد عز وجل أن يثيب منهم من آمن ومن أحسن. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي: من الذين اشتد حزنهم وتحسروا حتى أخرجهم ذلك إلى الجزع الشديد، وإلى ما لا يَحِل؛ أي: لا تحزن على كفرهم فتقارب حال الجاهلين. وقيل: الخطاب له والمراد الأمة؛ فإن قلوب المسلمين كانت تضيق من كفرهم وإذايتهم.

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٣٦) وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۚ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٧)﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ أي: سماع إصغاءَ وتفهُّم وإرادة الحق، وهم المؤمنون الذين يقبلون ما يسمعون فينتفعون به ويعملون؛ قال معناه الحسن ومجاهد، وتمّ الكلام. ثم قال: ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ وهم الكفار؛ عن الحسن ومجاهد؛ أي: هم بمنزلة الموتى في أنهم لا يقبلون ولا يصغون إلى حجة. وقيل: الموتى كل من مات. ﴿يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ أي: للحساب؛ وعلى الأول بَعْثهم هدَايتهم إلى الإيمان بالله وبرسوله ﷺ. وعن الحسن: هو بعثهم من شِركهم حتى يؤمنوا بك يا محمد يعني عند حضور الموت في حال الإلجاء في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ قال الحسن: ﴿لَوْلَا﴾ ها هنا بمعنى هلاّ؛ وقال الشاعر:

تَعدُّون عَقْرَ النِّيبِ أفضل مَجْدِكم بَني ضَوْطَرَى لولا الكَمِيَّ المقنَّعَا

وكان هذا منهم تعنتاً بعد ظهور البراهين؛ وإقامة الحجة بالقرآن الذي عجزوا أن يأتوا بسورة مثله، لما فيه من الوصف وعلم الغيوب. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعلمون أن الله عز وجل إنما ينزل من الآيات ما فيه مصلحة لعباده؛ وكان في علم الله أن يخرج من أصلابهم أقواماً يؤمنون به ولم يرد استئصالهم. وقيل: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الله قادر على إنزالها. الزجاج: طلبوا أن يجمعهم على الهدى أي: جمع إلجاء.

﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ تقدّم معنى الدابة والقول فيه في «البقرة» وأصله الصفة؛ من دَبّ يَدِبّ فهو دابّ إذا مشى مشياً فيه تَقَارُب خَطْو. ﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ بخفض ﴿طَائِرٍ﴾ عطفاً على اللفظ.

وقرأ الحسن وعبدالله بن أبي إسحاق «وَلاَ طَائِرٌ» بالرفع عطفاً على الموضع، و «من» زائدة التقدير: وما دابةٌ. ﴿بِجَنَاحَيْهِ﴾ تأكيد وإزالة للإبهام؛ فإن العرب تستعمل الطيران لغير الطائر، تقول للرجل: طِرْ في حاجتي؛ أي: أسرعْ؛ فذكَر ﴿بِجَنَاحَيْهِ﴾ ليتمحض القول في الطير، وهو في غيره مجاز. وقيل: إن اعتدال جَسَد الطائر بين الجناحين يعينه على الطيران، ولو كان غير معتدل لكان يميل؛ فأعلمنا أن الطيران بالجناحين و ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النحل: ٧٩] والجناح أحد ناحيتي الطير الذي يتمكن به من الطيران في الهواء، وأصله الميل إلى ناحية من النواحي؛ ومنه جَنَحت السفينةُ إذا مالت إلى ناحية الأرض لاصقة بها فوقفت. وطائر الإنسان عمله؛ وفي التنزيل ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء: ١٣] ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ أي: هم جماعات مثلكم في أن الله عز وجل خلقهم، وتكفّل بأرزاقهم، وعدَلَ عليهم، فلا ينبغي أن تظلموهم، ولا تجاوزوا فيهم ما أمرتم به. و﴿دَابَّةٍ﴾ تقع على جميع ما دبّ؛ وخص بالذكر ما في الأرض دون السماء لأنه الذي يعرفونه ويعاينونه. وقيل: هي أمثال لنا في التسبيح والدلالة؛ والمعنى: وما من دابة ولا طائر إلا وهو يسبّح

الله تعالى، ويدل على وحدانيته لو تأمل الكفار. وقال أبو هُريرة: هي أمثال لنا على معنى أنه يحشر البهائم غداً ويقتص للجّماء من القَرْنَاء ثم يقول الله لها: كوني تراباً[١]. وهذا اختيار الزجاج فإنه قال: ﴿إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ في الخلق والرزق والموت والبعث والاقتصاص، وقد دخل فيه معنى القول الأول أيضاً. وقال سُفيان بن عُيينة: أي: ما من صنف من الدواب والطير إلا في الناس شبه منه؛ فمنهم من يعدو كالأسد، ومنهم من يَشْرَه كالخنزير، ومنهم من يعوي كالكلب، ومنهم من يزهو كالطاوس؛ فهذا معنى المماثلة. واستحسن الخَطَّابي هذا وقال: فإنك تعاشر البهائم والسباع فخذ حذْرك. وقال مجاهد في قوله عز وجل: ﴿إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ قال: أصناف لهن أسماء تُعرف بها كما تُعرَفون. وقيل غير هذا مما لا يصح من أنها مثلنا في المعرفة، وأنها تُحشر وتنعم في الجنة، وتعوّض من الآلام التي حلت بها في الدنيا وأن أهل الجنة يستأنسون بصورهم؛ والصحيح ﴿إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ في كونها مخلوقة دالة على الصانع محتاجة إليه مرزوقة من جهته، كما أن رزقكم على الله. وقول سفيان أيضاً حسن؛ فإنه تشبيه واقع في الوجود.

قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ أي: في اللوح المحفوظ فإنه أثبت فيه ما يقع من الحوادث. وقيل: أي: في القرآن أي: ما تركنا شيئاً من أمر الدين إلا وقد دَلَلْنَا عليه في القرآن؛ إما دلالة مبينة مشروحة، وإما مجملة يُتَلقّى بيانها من الرسول عليه الصلاة والسلام، أو من الإجماع، أو من القياس الذي ثبت بنص الكتاب؛ قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩] وقال: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] وقال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧] فأجمل في هذه الآية وآية «النحل» ما لم ينص عليه مما لم يذكره، فصدق خبر الله بأنه ما فرط في الكتاب من شيء إلا ذكره إما تفصيلاً وإما تأصيلاً؛ وقال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ أي: للجزاء، كما سبق في خبر أبي هُريرة، وفي صحيح مسلم عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لتؤدّن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يُقاد للشاة الجَلْحَاء من الشاة القَرْناء»[٢]. ودلّ بهذا على أن البهائم تحشر يوم القيامة؛ وهذا قول أبي ذر وأبي هريرة[٣] والحسن وغيرهم، ورُوي عن ابن عباس؛ قال ابن عباس في رواية: حشْرُ الدوابّ والطيْر موتُها؛ وقاله الضحاك؛ والأوّل أصح لظاهر الآية والخبر الصحيح، وفي التنزيل ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥] وقول أبي هُريرة فيما روى جعفر بن برقان عن يزيد بن الأصم عنه: يحشر الله الخلق كلهم يوم القيامة، البهائم والدواب والطير وكل شيء؛ فيبلغ من عدل الله تعالى يومئذ أن يأخذ للجماء من

---

(١) حسن: الطبري (٧/ ٢٠٠) في تفسيره، والحاكم (٢/ ٣٤٥) في المستدرك، وفيه جعفر بن برقاق: صدوق يهم في حديث الزهري ورواه هنا عن يزيد بن الأصم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) صحيح: مسلم (٢٥٨٢) في البر والصلة.

والجلحاء: التي لا قرن لها. النهاية (١/ ٢٨٤) لابن الأثير.

ويُقاد: يقتص من القود.

(٣) كذا عند الطبري (٧/ ٢٠٠) في تفسيره.

القرناء ثم يقول: «كُونِي تُـرَاباً» فذلك قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾ [النبأ: ٤٠] وقال عطاء: فإذا رأوا بني آدم ومـا هم عليه من الجَـزَع قلن: الحمد لـله الذي لم يجعلنا مثـلكم، فلا جنة نرجو ولا نار نخاف؛ فيقول الله تعالى لهن: «كُنَّ تُرَاباً» فـحينئذ يتمنى الكافر أن يكون تُراباً. وقالت جماعـة: هذا الحشر الذي في الآية يرجع إلى الكفـار وما تَخلّل كلامٌ مـعترَضٌ وإقامة حُـجج؛ وأما الحديث فالمقصود منه التمثيل على جهة تعظيم أمر الحساب والقصاص والاعتناء فيه حتى يفهم منه أنه لا بد لكل أحـد منه، وأنه لا محـيص له عنه؛ وعضـدوا هذا بما في الحديث في غـير الصحـيح عن بعض رواته من الزيادة فقـال: حتى يُقاد للشاة الجَلْحـاء من القَرْناء، وللحجر لما ركب عـلى الحجر، وللعود لما خدَش العود: قالوا: فظهـر من هذا أنّ المقصود منه التمثيل المفيد للاعـتبار والتهويل، لأن الجمادات لا يُعقَل خطابها ولا ثوابُها ولا عقابُها، ولم يصـر إليه أحد من العقلاء، ومتخيلة من جملة المعتوهين الأغبياء؛ قالوا: ولأن القلم لا يجري عليهم فلا يجوز أن يؤاخذوا.

قلت: الصحيح القول الأوّل لما ذكرناه من حديث أبي هريرة، وإن كان القلم لا يجرى عليهم في الأحكام ولكن فيما بينهم يؤاخذون به؛ وروي عن أبي ذر قال: انتطحت شاتان عند النبيّ ﷺ فقال: «يا أبا ذَرٍّ هل تدري فيما انتطحتا»؟ قلت: لا. قال: «لكن الله تعالى يدري وسيقضي بينهما»[1] وهذا نص، وقد زدناه بياناً في كتاب «التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة». والله أعلم.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَتْكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ۝﴾

قوله تـعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ﴾ ابتداء وخـبر، أي: عـدموا الانتفـاع بأسمـاعهم وأبصارهم؛ فكل أُمة من الدواب وغيرها تهتدي لمصالحها والكفار لا يهتدون؛ وقد تقدّم في «البقرة». ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أي: ظلمات الكفر. وقـال أبو علي: يجوز أن يكون المعنى ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ﴾ في الآخرة؛ فيكون حقيقـة دون مجاز اللغة. ﴿مَن يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ﴾ دلّ على أنه شاء ضلال الكافـر وأراده لينفذ فيه عدله؛ ألا ترى أنه قال: ﴿وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: على دين الإسلام لينفذ فيه فضله. وفيه إبطال لمذهب القَدَرية. والمشيئة راجعة إلى الذين كذبوا، فمنهم من يضله ومنهم من يهديه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ﴾ وقرأ نافع بتـخفيف الهمـزتين، يلقي حركة الأُولى على ما قـبلها، ويأتي بالثانية بَيْن بَيْن. وحكى أبو عُبيد عنه أنه يسقط الـهمزة ويعوض منها ألفاً. قال النحاس: وهذا عند أهل العربية غلط عليه؛ لأن الياء ساكنة والألف ساكنة ولا يجتمع ساكنان. قال مكيّ: وقد روي عن وَرْش أنه أبدل من الهـمزة ألفـاً؛ لأن الرواية عنه أنه يمدّ الثانيـة، والمد لا يتمكن إلاّ مـع البدل، والبدل فرع عن الأُصول، والأصل أن تجعل الهمزة بين الهمزة المفتوحة والألف؛ وعليه كل من خفّف

---

(١) حسن: الطيالسي (٤٨٠) في مسنده عن شعبة عن الأعمش عن إبراهيم التيمي عن أبيه عن أبي ذر، ورواه أحمد (٥/ ١٦٢) وفي إسناده جهالة، والرواية الأولى تشهد له.

الثانية غير وَرْش؛ وحسن جواز البدل في الهمزة وبعدها ساكن لأن الأوّل حرف مدّ ولِين، فالمدّ الذي يحدث مع الساكن يقوم مقام حركة يوصل بها إلى النطق بالساكن الثاني.

وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة ﴿أَرَأَيْتَكُمْ﴾ بتحقيق الهمزتين وأتوا بالكلمة على أصلها، والأصل الهمز؛ لأن همـزة الاستفهام دخلت على «رأيت» فالهـمزة عين الفعل، والياء ساكنة لاتصـال المضمر المرفوع بها.

وقرأ عيـسى بن عمر والكسائي « أَرَأَيْتَكُمْ » بحذف الهـمزة الثانية. قال النحـاس: هذا بعيد في العربية، وإنمـا يجوز في الشعر؛ والعرب تقـول: أرأيتك زيداً ما شأنه. ومذهب البـصريين أن الكاف والميم للخطاب، لاحظ لهما في الإعـراب؛ وهو اختيار الزجاج. ومذهب الكسائي والفـراء وغيرهما أن الكاف والميم نصب بوقوع الرؤية عليهما، والمعنى أرأيتم أنفسكم؛ فإذا كانت للخطاب زائدة للتأكيد كان «إن» من قـوله ﴿إِنْ أَتَاكُمْ﴾ في مـوضع نصب على المفعـول لرأيت، وإذا كان اسـماً في مـوضع نصب فـ «إن» في موضع المفعـول الثاني؛ فالأوّل من رؤية العين لتعدّيها لمفـعول واحد، وبمعنى العلم تتعدّى إلى مفعولين. وقوله: ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ المعنى: أو أتتكم الساعة التي تبعثـون فيها. ثم قال: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ والآية في محاجَّة المشركين ممن اعـترف أن له صانعاً؛ أي: أنتم عند الشدائـد ترجعون إلى اللـه، وسترجـعون إليـه يوم القيـامة أيضاً فلـم تصرّون على الشـرك في حال الرفاهية؟ وكانوا يعبدون الأصنام ويدعون الله في صرف العذاب.

قوله تعالى: ﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ ﴾ ﴿ بَلْ ﴾ إضـراب عن الأوّل وإيجـاب للـثاني. « إياه » نصب بـ «تدعون» ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ﴾ أي: يكشف الضرّ الذي تدعون إلى كشفه إن شاء كشفه. ﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ قيل: عند نزول العـذاب. وقال الحسن: أي: تعرضـون عنه إعراض الناسِي، وذلك لليـأس من النجاة من قـبله إذ لا ضـرر فيـه ولا نفع. وقال الـزجاج: يجـوز أن يكون المعنى وتتركون. قال النحاس: مثل قوله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ﴾ [طه: ١١٥].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ الآية تسلية للنبيّ ﷺ، وفيه إضمار؛ أي: أرسلنا إلى أُممٍ من قبلك رسـلاً، وفيه إضـمار آخر يدل عليـه الظاهر؛ تقديره: فكذبوا فـأخذناهم. وهذه الآية متصلة بما قبل اتصال الحال بحال قريبة منها؛ وذلك أن هؤلاء سلكوا في مخالفة نبيهم مسلك من كان قبلهم في مـخالفـة أنبيائهم، فكانوا بعـرض أن ينزل بهم من البلاء مـا نزل بمن كان قبـلهم. ومعنى ﴿بِالْبَأْسَاءِ﴾ بالمصائب في الأموال ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ في الأبدان؛ هذا قول الأكثـر، وقد يوضع كل واحد منهمـا موضع الآخر؛ ويؤدّب الله عـباده بالبأساء والضـراء وبما شاء ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾. قال ابن عطية: استدل العُـبَّادُ في تأديب أنفسهم بالبأساء في تفـريق الأموال، والضراء في الحمل على الأبدان بالجوع والعُري بهذه الآية.

قلت: هذه جهالة ممن فعلـها وجعل هذه الآية أصلاً لها؛ هذه عقوبة من الـله لمن شاء من عباده أن يمتحنهم بها، ولا يجوز لنا أن نمتحن أنفسنا ونكافئها قـياساً عليها؛ فإنها المطية التي نبلغ عليها دار

الكرامة، ونفوز بها من أهوال يـوم القيامة؛ وفي التنزيل ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١] وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٦٧] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢] فـأمر المؤمنـين بما خاطب به المرسلـين؛ وكان رسـول الله ﷺ وأصحابه يأكلون الطيـبات ويلبسون أحسن الثيـاب ويتجملون بها؛ وكذلك التـابعون بعدهم إلى هلم جرا، على ما تقدّم بيـانه في «المائدة» وسيأتي في «الأعراف» من حكم اللباس وغيـره ؛ ولو كان كما زعمـوا واستدلوا لما كان في امـتنان الله تعالى بالزروع والجنات وجمـيع الثمار والنبـات والأنعام التي سخرها وأباح لنا أكلها وشرب ألبانها والدفء بأصوافها إلى غير ذلك مما امتن به كبير فائدة ، فلو كان ما ذهبوا إليه فـيه الفضل لكان أولى به رسول الله ﷺ وأصحابه ومن بعـدهم من التابعين والعلماء، وقد تقدّم في آخر «البقرة» بيان فضل المال ومنفـعته والردّ على من أَبَى من جَمْعه ؛ وقد : نهى النبي ﷺ عن الوصال [١] مخـافة الضّـعف على الأبدان ، ونهى عن إضـاعة المال [٢] رداً على الأغنياء الجهال.

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي: يدعون ويذلّون، مأخوذ من الضراعة وهي الذلّة؛ يُقال: ضَرَع فهو ضارع.

﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ «لولا» تحضيض، وهي التي تلي الفعل بمعنى هَلاَّ؛ وهذا عتاب على ترك الدعـاء، وإخبار عنهم أنهم لم يتَضرَّعـوا حين نزول العذاب. ويجوز أن يكونوا تضرّعوا تضـرّع من لم يُخلص، أو تضرعوا حين لاَبَسـهم العذابُ، والتضرع على هذه الوجـوه غير نافع. والدعاء مـأمور به حال الرَّخاء والشّدّة؛ قـال الله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ أي: دعائي ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] وهذا وعيد شديد. ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: صَلُبت وغلُظت؛ وهي عبارة عن الكفر والإصـرار على المعصية، نسأل الله العافية. ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: أغواهم بالمعاصي وحملهم عليها.

قولـه تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ يُقال: لِم ذمّوا على النسيـان وليس من فعلـهم؟ فالجواب أنّ ﴿نَسُوا﴾ بمعنى تركوا مـا ذكّروا به، عن ابن عباس وابن جُـرَيْج، وهو قول أبي عليّ؛ وذلك لأن التارك للشيء إعراضاً عنه قد صيره بمنزلة ما قد نسِي، كما يُقال: تركه. في النَّسْي. جواب آخر وهو أنهم تعرّضوا للنّسيـان فجاز الذمّ لذلك؛ كما جاز الذمّ على التعرّض لسـخط اللـه عزّ وجلّ وعقابه. ومعنى ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: من النعم والخيرات، أي: كثـرنا لـهم ذلك. والتقدير عند

(١) متفق عليه : وقد سبق .

(٢) سبق عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

أهل العربية: فـتحنا عليهم أبواب كل شيء كان مـغلقاً عنهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ معناه بَطروا وأشروا وأعجبوا وظنّوا أن ذلك العطاء لا يَبيد، وأنه دال على رضـاء اللـه عزّ وجلّ عنهم ﴿أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾ أي: استأصلنـاهم وسطونا بهم. و «بَغْتَةً» معناه فـجأة، وهي الأخذ على غِرّة ومن غـير تقدّم أمارة؛ فإذا أخذ الإنسان وهو غـارٌّ غافل فقد أُخذ بغتةً، وأَنْكَى شيءٍ ما يَفْـجأُ من البَغْت. وقد قيل: إن التذكير الذي سلف فأعرضوا عنه قام مقام الأمارة. واللـه أعلم. و «بَغْتَةً» مصدر في موضع الحال لا يُقاس عليه عند سيـبويه كما تقدّم؛ فكان ذلك استدراجاً من اللـه تـعالى كما قال: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: ٤٥] نعوذ باللـه من سخطه ومكره. قال بعض العلماء: رحم اللـه عبداً تدبر هذه الآية ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾. وقال مـحمد بن النَّصـر الحارثي: أمـهل هؤلاء القوم عشرين سنة. وروى عقـبة بن عامر أن النبي ﷺ قال: «إذا رأيتم اللـه تعالى يعطي العـباد ما يشاؤون على معاصيـهم فإنما ذلك استدراج منه لـهم» ثم تلا: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾[1] الآية كلـها. وقال الحسن: واللـه ما أحد من الناس بسط اللـه لـه في الدنيا فلم يخف أن يكون قد مكر لـه فيها إلاّ كان قد نقص عملـه، وعجز رأيه. وما أمسكها اللـه عن عـبد فلم يظن أنه خيرٌ لـه فيها إلاّ كان قد نقص عملـه، وعـجز رأيه. وفي الخبر أن اللـه تعـالى أوحى إلى موسى ﷺ: «إذا رأيت الفقر مـقبلاً إليك فقل مرحباً بشعار الصالحين وإذا رأيت الغنى مقبلاً إليك فقل ذنب عُجّلت عقوبته»[2].

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ المبلس الباهت الحزين الآيس من الخير الذي لا يُحير جواباً لشدّة ما نزل به من سوء الحال؛ قال العجاج:

يَا صاحِ هل تَعرفُ رَسْماً مُكْرَساً قال نَعَمْ أعرفُه وأَبْلَسَا

أي: تحيّر لهول ما رأى، ومن ذلك اشتق اسم إبليس؛ أَبْلَس الرجلُ سكَت، وأَبْلَسَت الناقةُ وهي مِبلاَسٌ إذا لم تَرْغُ من شدّة الضَّبَعة؛ ضَبِعت الناقةُ تَضْبَع ضَبَعَةً وضَبْعاً إذا أرادت الفحل.

قوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ الدابر الآخر؛ يُقال: دَبَر القومَ يَدْبِرُهم دَبْراً إذا كان آخـرهم في المجيء. وفي الحديـث عن عبـد الله س مـسعـود: «من الناس من لا يأتي الصَّـلاة إلاّ دبرياً»[3] أي: في آخر الوقت؛ والمعنى هنا قطع حلفـهم من نسلهم وغيّرهم فلم تبق لهم باقـية. قال قُطْرُب: يعني أنهم استؤصلوا وأهلكوا. قال أُميّة بن أبي الصَّلْت:

فأهلكُوا بعذابٍ حَصَّ دابرهم فما استطاعوا له صَرْفاً ولا انْتصرُ

ومنه التدبير لأنه احكام عواقب الأُمور. ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قيل: على إهلاكهم، وقيل: تعليم للمؤمنين كـيف يحمدونه. وتضـمنت هذه الآية الحجة على وجـوب ترك الظلم؛ لما يعقب من قطع الدابر، إلى العذاب الدائم، مع استحقاق القاطع الحمدَ من كلّ حامد.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۗ ٱنظُرْ

(١) صحيح: أحمد (٤/ ١٤٥) في المسند، والطبري (٧/ ٢٠٦) في تفسيره. وصححه الألباني (٥٦١) في صحيح الجامع.

(٢) خبر من الإسرائيليات لا يصدق ولا يكذب.

(٣) ذكره ابن الأثير (٢/ ٩١) في النهاية.

كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَـٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ﴾ أي: أذهب وانتزع. ووحد ﴿سَمْعَكُمْ﴾ لأنه مصدر يدل على الجمع. ﴿وَخَتَمَ﴾ أي: طبع، وقد تقدّم في «البقرة». وجواب «إنْ» محذوف تقديره: فمن يأتيكم به، وموضعه نصب؛ لأنها في موضع الحال، كقولك: اضربه إن خرج أي: خارجاً. ثم قيل: المراد المعاني القائمة بهذه الجوارح، وقد يذهب الله الجوارح والأعراض جميعاً فلا يبقي شيئاً، قال الله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾ [النساء: ٤٧] والآية احتجاج على الكفار. ﴿مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ «من» رفع بالابتداء وخبرها «إله» و «غيره» صفة له، وكذلك ﴿يَأْتِيكُم﴾ موضعه رفع بأنه صفة «إله» ومخرجها مخرج الاستفهام، والجملة التي هي منها في موضع مفعولي رأيتم. ومعنى ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾. علمتم وحّد الضمير في ﴿بِهِ﴾ وقد تقدّم الذكر بالجمع لأنّ المعنى أي: بالمأخوذ فالهاء راجعة إلى المذكور. وقيل: على السمع بالتصريح؛ مثل قوله: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢] ودخلت الأبصار والقلوب بدلالة التضمين. وقيل: ﴿مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم﴾ بأحد هذه المذكورات. وقيل: على الهدى الذي تضمنه المعنى.

وقرأ عبد الرحمن الأعرج «بِهُ انْظُرْ» بضم الهاء على الأصل؛ لأن الأصل أن تكون الهاء مضمومة كما تقول: جئت معه. قال النقاش: في هذه الآية دليل على تفضيل السمع على البصر لتقدمته هنا وفي غير آية، وقد مضى هذا في أوّل «البقرة» مستوفى. وتصريف الآيات الإتيان بها من جهات؛ من إعذار وإنذار وترغيب وترهيب ونحو ذلك. ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ أي: يعرضون. عن ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة والسُّدّي؛ يُقال: صدف عن الشيء إذا أعرض عنه صَدْفاً وصُدُوفاً فهو صادفٌ. وصادفته مصادفة أي: لقيته عن إعراض عن جهته؛ قال ابن الرِّقاع:

إذَا ذَكَرْنَ حديثاً قُلْنَ أحسنَه ... وهُنّ عن كلّ سوءٍ يُتَّقَى صُدُفُ

والصَّدَف في البعير أن يميل خُفُّه من اليد أو الرجل إلى الجانب الوَحْشيّ؛ فهم يصدفون، أي: مائلون معرضون عن الحجج والدلالات.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾ الحسن: ﴿بَغْتَةً﴾ ليلاً ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ نهاراً. وقيل: بغتة فجأة. وقال الكسائي: يُقال بَغَتهم الأمرُ يَبغَتهم بَغْتاً وبغتة إذا أتاهم فجأة، وقد تقدّم. ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ نظيره ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥] أي: هل يهلك إلاّ أنتم لشرككم؛ والظلم هنا بمعنى الشرك، كما قال لقمان لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أي: بالترغيب والترهيب. قال الحسن:

مبشرين بسعة الرزق في الدنيا والثواب في الآخرة؛ يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦] ومعنى ﴿مُنذِرِينَ﴾ مخوفين عقاب الله؛ فالمعنى: إنما أرسلنا المرسلين لهذا لا لما يقترح عليهم من الآيات، وإنما يأتون من الآيات بما تظهر معه براهينهم وصدقهم. وقوله: ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ تقدّم القول فيه.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: بالقرآن والمعجزات. وقيل: بمحمد عليه الصَّلاة والسَّلام. ﴿يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ﴾ أي: يصيبهم ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي: يكفرون.

﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ هذا جواب لقولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ فالمعنى ليس عندي خزائن قدرته فأنزل ما اقترحتموه من الآيات، ولا أعلم الغيب فأخبركم به. والخزانة ما يُخزَن فيه الشيءُ؛ ومنه الحديث: «فإنما تَخزُن لهم ضروعُ مواشيهم أطعماتهم أيحب أحدكم أن تؤتى مَشْرَبَته فتكسر خِزانتُه»[(١)]. وخزائن الله مقدوراته؛ أي: لا أملك أن أفعل كل ما أريد مما تقترحون ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ أيضاً ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ وكان القوم يتوهمون أن الملائكة أفضل، أي: لست بملَك فأشاهد من أمور الله ما لا يشهده البشر. واستدل بهذا القائلون بأن الملائكة أفضل من الأنبياء. وقد مضى في «البقرة» القول فيه فتأمّله هناك.

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ ظاهره أنه لا يقطع أمراً إلاّ إذا كان فيه وحي. والصحيح أن الأنبياء يجوز منهم الاجتهاد، والقياس على المنصوص، والقياس أحد أدلة الشرع. وسيأتي بيان هذا في «الأعراف» وجواز اجتهاد الأنبياء في «الأنبياء» إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ أي: الكافر والمؤمن؛ عن مجاهد وغيره. وقيل: الجاهل والعالم. ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ أنهما لا يستويان.

﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾ أي: بالقرآن. والإنذار الإعلام وقد تقدّم في «البقرة». وقيل: ﴿بِهِ﴾ أي: بالله. وقيل: باليوم الآخر. وخص ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا﴾ لأن الحجة عليهم أوجب، فهم خائفون من عذابه، لا أنهم يترددون في الحشر؛ فالمعنى ﴿يَخَافُونَ﴾ يتوقعون عذاب الحشر. وقيل: ﴿يَخَافُونَ﴾ يعلمون، فإن كان مسلماً أنذر ليترك المعاصي، وإن كان من أهل الكتاب أنذر ليتبع الحق.

---

(١) متفق عليه: البخاري (٢٤٣٥) في اللقطة، ومسلم (١٧٢٦) في اللقطة عن ابن عمر رضي الله عنهما.

وقال الحسن: المراد المؤمنون. قال الزجاج: كل من أقرّ بالبعث من مؤمن وكافر. وقيل: الآية في المشركين أي. أنذرهم بيوم القيامة. والأول أظهر. ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ﴾ أي: من غير الله ﴿شَفِيعٌ﴾ هذا ردّ على اليهود والنصارى في زعمهما أن أباهما يشفع لهما حيث قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ والمشركون حيث جعلوا أصنامهم شفعاء لهم عند الله، فأعلم الله أن الشفاعة لا تكون للكفار. ومن قال الآية في المؤمنين قال: شفاعة الرسول لهم تكون بإذن الله فهو الشفيع حقيقة إذن؛ وفي التنزيل: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم﴾ [الأنبياء: ٢٨] ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٣] ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: في المستقبل، وهو الثبات على الإيمان.

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ الآية. قال المشركون؛ ولا نرضى بمجالسة أمثال هؤلاء يعنون سلْمان وصُهَيباً وبلالاً وخبّاباً فاطردهم عنك؛ وطلبوا أن يكتب لهم بذلك، فهمّ النبي ﷺ بذلك، ودعا علياً ليكتب؛ فقام الفقراء وجلسوا ناحية؛ فأنزل الله الآية. ولهذا أشار سعد بقوله في الحديث الصحيح: فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع؛ وسيأتي ذكره. وكان النبي ﷺ إنما مال إلى ذلك طمعاً في إسلامهم، وإسلام قومهم، ورأى أن ذلك لا يفوّت أصحابه شيئاً، ولا ينقص لهم قدراً، فمال إليه فأنزل الله الآية، فنهاه عما همّ به من الطرد لا أنه أوقع الطرد.

روى مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال: كنا مع النبي ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاءِ عنك لا يجترئون علينا؛ قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هُذَيل وبلال ورجلان لست أسميهما، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدث نفسه، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ (١). قيل: المراد بالدعاء المحافظة على الصّلاة المكتوبة في الجماعة؛ قاله ابن عباس ومجاهد والحسن. وقيل: الذكر وقراءة القرآن. ويحتمل أن يريد الدعاء في أول النهار وآخره؛ ليستفتحوا يومهم بالدعاء رغبة في التوفيق، ويختموه بالدعاء طلباً للمغفرة. ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أي: طاعته، والإخلاص فيها، أي: يخلصون في عبادتهم وأعمالهم لله، ويتوجهون بذلك إليه لا لغيره. وقيل: يريدون الله الموصوف بأن له الوجه كما قال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧] وهو كقوله: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ [الرعد: ٢٢] وخص الغداة والعشيّ بالذكر؛ لأن الشغل غالب فيهما على الناس، ومن كان في وقت الشغل مقبلاً على العبادة كان في وقت الفراغ من الشغل أعمل. وكان رسول الله ﷺ بعد ذلك يصبر نفسه معهم كما أمره الله في قوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف: ٢٨] فكان لا يقوم حتى يكونوا هم الذين يبتدئون القيام، وقد أخرج هذا المعنى مبيناً

---

(١) صحيح: مسلم (٢٤١٤) في فضائل الصحابة.

مكملاً ابن ماجه في سننه عن خبّاب في قول الله عزّ وجلّ: ﴿ولا تطرُد الَّذين يدعُون ربهم بالغداة والْعشيّ﴾ إلى قوله: ﴿فتكُون من الظَّالمين﴾ قال: جاء الأقرعُ بن حابس التميميّ وعُيينة بن حِصْن الفَزَاريّ فوجدا رسول الله ﷺ مع صُهيب وبلال وعمّار وخبّاب، قاعداً في ناس من الضعفاء من المؤمنين؛ فلما رأوهم حوْل النبي ﷺ حقروهم؛ فأتوه فخلوا به وقالوا: إنا نريد أن تجعل لنا منك مجلساً تَعرفُ لنا به العرب فضلنا، فإن وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا العرب مع هذه الأعبُد. فإذا نحن جئناك فأقمهم عنك، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت؛ قال: «نعم» قالوا: فاكتب لنا عليك كتاباً؛ قال: فدعا بصحيفة ودعا علياً رضي الله عنه ليكتب ونحن قعود في ناحية؛ فنزل جبريل عليه السَّلام فقال: ﴿ولا تطرُد الَّذين يدْعُون ربَّهُم بالْغداة والْعشيّ يُريدُون وجْههُ ما عليْك منْ حسابهم من شيْءٍ وما منْ حسابك عليْهم مّن شيْءٍ فتطْرُدهُمْ فتكُون من الظَّالمين﴾ ثم ذكر الأقرع بن حابس وعُيَيْنة بن حِصْن؛ فقال: ﴿وكذلك فتنَّا بعْضهُم ببعْضٍ ليقُولُوا أهؤُلاء منَّ اللَّهُ عليْهم مّنْ بيْننا أليْس اللَّهُ بأعْلم بالشَّاكرين﴾ [الأنعام: ٥٣] ثم قال: ﴿وإذا جاءك الَّذين يُؤْمنُون بآياتنا فقُلْ سلامٌ عليْكُمْ كتب ربُّكُمْ على نفْسه الرَّحْمة﴾ [الأنعام: ٥٤] قال: فدنونا منه حتى وضعنا رُكَبنا على رُكْبته؛ وكان رسول الله ﷺ يجلس معنا فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا؛ فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿واصْبرْ نفْسك مع الَّذين يدْعُون ربَّهُم بالْغداة والْعشيّ يُريدُون وجْههُ ولا تعْدُ عيْناك عنْهُمْ تُريدُ زينة الْحياة الدُّنْيا﴾ ولا تجالس الأشراف ﴿ولا تُطعْ منْ أغْفلْنا قلْبهُ عن ذكْرنا﴾ يعني عُيَيْنة والأقرع ﴿واتَّبع هواهُ وكان أمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨] أي: هلاكاً قال: أمْر عُيَيْنة والأقرع؛ ثم ضرب لهم مَثَل الرجليْن ومَثَل الحياة الدنيا. قال خبَّاب: فكنا نقعد مع النبي ﷺ فإذا بلغنا الساعة التي يقوم فيها قمنا وتركناه حتى يقوم(١)؛ رواه عن أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد القَطّان حدّثنا عمرو بن محمد العَنْقَزِيّ حدّثنا أسباط عن السُّديّ عن أبي سعيد الأزدي وكان قارئ الأزد عن أبي الكنود عن خبّاب؛ وأخرجه أيضاً عن سعد قال: نزلت هذه الآية فينا ستة، فيّ وفي ابن مسعود وصُهَيب وعمّار والمِقْداد وبلال؛ قال: قالت قريش لرسول الله ﷺ إنا لا نرضى أن نكون أتباعاً لهم فاطردهم، قال: فدخل قلب رسول الله ﷺ من ذلك ما شاء الله أن يدخل؛ فأنزل الله عزّ وجلّ (٢) ﴿ولا تطْرُد الَّذين يدْعُون ربَّهُم بالْغداة والْعشيّ﴾ الآية. وقرئ «بالغُدْوَة» وسيأتي بيانه في «الكهف» إن شاء الله.

قوله تعالى: ﴿ما عليْك منْ حسابهم مّن شيْءٍ﴾ أي: من جزائهم ولا كفاية أرزاقهم، أي: جزاؤهم ورزقهم على الله، وجزاؤك ورزقك على الله لا على غيره. «مِن» الأولى للتبعيض، والثانية زائدة للتوكيد. وكذا ﴿وما منْ حسابك عليْهم مّن شيْءٍ﴾ المعنى وإذا كان الأمر كذلك فأقبل عليهم وجالسهم ولا تطردهم مراعاة لحق من ليس على مثل حالهم في الدّين والفضل؛ فإن فعلت كنت ظالماً. وحاشاه من وقوع ذلك منه، وإنما هذا بيان للأحكام، ولئلا يقع مثل ذلك من غيره من أهل السلام؛ وهذا مثل قوله: ﴿لئنْ أشْركْت ليحْبطنَّ عملُك﴾ [الزمر: ٦٥] وقد علم الله منه أنه لا يُشرِك ولا يَحبط عمله.

---

(١) صحيح: ابن ماجه (٤١٢٧) في الزهد، والطبري (٧/ ٢١٢) في تفسيره، وصححه الألباني رحمه الله تعالى.

(٢) صحيح: وقد سبق.

﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ جواب النفي. ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ نصب بالفاء في جواب النهي؛ المعنى: ولا تطرد الذين يدعون ربهم فتكون من الظالمين، وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم، على التقديم والتأخير. والظلم أصله وضع الشيء في غير موضعه؛ وقد تقدّم في «البقرة» مستوفى. وقد حصل من قوّة الآية والحديث النهي عن أن يعظم أحد لجاهه ولثوبه، وعن أن يحتقرَ أحد لخموله ولرثاثة ثوبيه.

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي: كما فتنا من قبلك كذلك فتنا هؤلاء. والفتنة الاختبار؛ أي: عاملناهم معاملة المختَبَرين. ﴿لِّيَقُولُوا﴾ نصب بلام كي، يعني الأشراف والأغنياء. ﴿أَهَٰؤُلَاءِ﴾ يعني الضعفاء والفقراء. ﴿مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا﴾ قال النحاس: وهذا من المشكل؛ لأنه يُقال: كيف فُتنوا ليقولوا هذه الآية؟ لأنه إن كان إنكاراً فهو كفر منهم.

وفي هذا جوابان: أحدهما أن المعنى اختبر الأغنياء بالفقراء أن تكون مرتبتهم واحدة عند النبي ﷺ، ليقولوا على سبيل الاستفهام لا على سبيل الإنكار: ﴿أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا﴾.

والجواب الآخر أنهم لما اختبروا بهذا فآل عاقبته إلى أن قالوا هذا على سبيل الإنكار، وصار مثل قوله: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ فيمنّ عليهم بالإيمان دون الرؤساء الذين علم الله منهم الكفر وهذا استفهام تقرير وهو جواب لقولهم: ﴿أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا﴾ وقيل: المعنى أليس الله بأعلم من يشكر الإسلام إذا هديته إليه.

﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ السلام والسلامة بمعنى واحد. ومعنى ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ سلمكم الله في دينكم وأنفسكم؛ نزلت في الذين نهى الله نبيه عليه الصَّلاة والسَّلام عن طردهم؛ فكان إذا رآهم بدأهم بالسلام وقال: «الحمد لله الذي جعل في أُمتي من أمرني أن أبدأهم بالسلام» (١) فعلى هذا كان السلام من جهة النبي ﷺ. وقيل: إنه كان من جهة الله تعالى، أي: أبلغهم منا السَّلام؛ وعلى الوجهين ففيه دليل على فضلهم ومكانتهم عند الله تعالى. وفي صحيح مسلم عن عائذ بن عمرو: أن أبا سفيان أتى على سلمان وصُهَيْب وبلال ونفرفقالوا: والله ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها؛ قال فقال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم؟ فأتى النبي ﷺ فأخبره فقال: «يا أبا بكر لعلك أغضبتهم لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك»

(١) ضعيف: الواحدي (ص ١٨٠) بلا سند في أسباب النزول.

فأتاهم أبو بكر فقال: يا إخوتاه أغضبتكم؟ قالوا: لا؛ يغفر الله لك يا أخي[١]؛ فهذا دليل على رفعة منازلهم وحرمتهم كما بيناه في معنى الآية. ويستفاد من هذا احترام الصالحين واجتناب ما يغضبهم أو يؤذيهم؛ فإن في ذلك غضب الله، أي: حلول عقابه بمن آذى أحداً من أوليائه. وقال ابن عباس: نزلت الآية في أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ رضي الله عنهم. وقال الفُضَيل بن عِيَاض: جاء قوم من المسلمين إلى النبي ﷺ فقالوا: إنا قد أصبنا من الذنوب فاستغفر لنا فأعرض عنهم؛ فنزلت الآية[٢]. وروي عن أنس بن مالك مثله سواء.

قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أي: أوجب ذلك بخبره الصدق، ووعده الحق، فخوطب العباد على ما يعرفونه من أنه من كتب شيئاً فقد أوجبه على نفسه. وقيل: كتب ذلك في اللوح المحفوظ. ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ﴾ أي: خطيئة من غير قصد؛ قال مجاهد: لا يعلم حلالاً من حرام ومن جهالته رَكِب الأمرَ، فكل من عمل خطيئة فهو بها جاهل؛ وقد مضى هذا المعنى في «النساء». وقيل: من آثر العاجل على الآخرة فهو الجاهل. ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قرأ بفتح «أنَّ» من ﴿فَأَنَّهُ﴾ ابن عامر وعاصم، وكذلك ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ﴾ ووافقهما نافع في ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ﴾. وقرأ الباقون بالكسر فيهما؛ فمن كسر فعلى الاستئناف، والجملة مفسرة للرّحمة؛ و «إنّ» إذا دخلت على الجمل كُسِرت وحكم ما بعد الفاء الابتداء والاستئناف فكُسِرت لذلك. ومن فتحهما فالأُولى في موضع نصب على البدل من الرحمة، بدل الشيء من الشيء وهو هو فأعمل فيها ﴿كَتَبَ﴾ كأنه قال: كتب ربكم على نفسه أنه من عمل؛ وأما ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ﴾ بالفتح ففيه وجهان: أحدهما أن يكون في موضع رفع بالابتداء والخبر مضمر، كأنه قال: فله أنه غفور رحيم؛ لأن ما بعد الفاء مبتدأ، أي: فله غفران الله. الوجه الثاني أن يضمر مبتدأ تكون «أنّ» وما عملت فيه خبره؛ تقديره فأمره غفران الله له، وهذا اختيار سيبويه، ولم يُجِز الأول، وأجازه أبو حاتم وقيل: إنّ ﴿كَتَبَ﴾ عمل فيها؛ أي: كتب ربكم أنه غفور رحيم. وروي عن علي بن صالح وابن هُرْمز كسر الأولى على الاستئناف، وفتح الثانية على أن تكون مبتدأة أو خبر مبتدأ أو معمولة لكتب على ما تقدّم. ومن فتح الأولى وهو نافع جعلها بدلاً من الرحمة، واستأنف الثانية لأنها بعد الفاء، وهي قراءة بيِّنة.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ التفصيل التبيين الذي تظهر به المعاني؛ والمعنى؛ وكما فصّلنا لك في هذه السورة دلائلنا ومحاجتنا مع المشركين كذلك نُفصّل لكم الآيات في كل ما تحتاجون إليه من أمر الدّين، ونبين لكم أدلتنا وحججنا في كل حق ينكره أهل الباطل. وقال القُتَبيّ: ﴿نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ نأتي بها شيئاً بعد شيء، ولا ننزلها جملة متصلة. ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ يُقال: هذه اللام تتعلق بالفعل فأين الفعل الذي تتعلق به؟ فقال الكوفيون: هو مقدّر؛ أي: وكذلك نفصّل الآيات

(١) صحيح: مسلم (٢٥٠٤) في فضائل الصحابة.

(٢) ضعيف: الواحدي (ص ١٨٠) في أسباب النزول عن ماهان الحنفي معضلاً، وذكره ابن عطية عن الفضيل (٥/ ٢١٣) في تفسيره.

لنبين لكم ولتستبين؛ قال النحاس: وهذا الحذف كله لا يحتاج إليه، والتقدير: وكذلك نفصّل الآيات فصّلناها. وقيل: إن دخول الواو للعطف على المعنى؛ أي: ليظهر الحق وليستبين، قرئ بالياء والتاء. ﴿سَبِيلُ﴾ برفع اللام ونصبها، وقراءة التاء خطاب للنبي ﷺ، أي: ولتستبين يا محمد سبيل المجرمين. فإن قيل: فقد كان النبي عليه السَّلام يستبينها؟ فالجواب عند الزجاج أن الخطاب للنبي عليه السَّلام خطاب لأمته؛ فالمعنى: ولتستبينوا سبيل المجرمين. فإن قيل: فلم لم يذكر سبيل المؤمنين؟ ففي هذا جوابان؛ أحدهما أن يكون مثل قوله: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] فالمعنى؛ وتقيكم البرد ثم حُذف؛ وكذلك يكون هذا المعنى ولتستبين سبيل المؤمنين ثم حذف. والجواب الآخر أن يُقال: استبان الشيءُ واستبنته؛ وإذا بان سبيل المجرمين فقد بان سبيل المؤمنين. والسبيل يذكر ويؤنث؛ فتميم تذكّره، وأهل الحجاز تؤنثه؛ وفي التنزيل ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ﴾ [الأعراف: ١٤٦] مذكَّر ﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٩٩] مؤنث؛ وكذلك قرئ ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ بالياء والتاء؛ فالتاء خطاب للنبيّ ﷺ والمراد أمّته.

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۚ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ قيل: «تدعون» بمعنى تعبدون. وقيل: تدعونهم في مهمات أُموركم على جهة العبادة؛ أراد بذلك الأصنام. ﴿قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾ فيما طلبتموه من عبادة هذه الأشياء، ومن طرد من أردتم طرده. ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾ أي: قد ضللت إن اتبعت أهواءكم. ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ أي: على طريق رشد وهدى.

وقرئ ﴿ضَلَلْتُ﴾ بفتح اللام وكسرها وهما لغتان. قال أبو عمرو بن العلاء: ضَلَلْتُ بكسر اللام لغة تميم، وهي قراءة يحيى بن وثّاب وطلحة بن مُصَرِّف، والأولى هي الأصح والأفصح؛ لأنها لغة أهل الحجاز، وهي قراءة الجمهور. وقال الجوهريّ: والضلال والضلالة ضد الرشاد، وقد ضَلَلْتُ أَضِلُّ، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي﴾ [سبأ: ٥٠] فهذه لغة نجد، وهي الفصيحة، وأهل العالية يقولون: ضَلِلْتُ بالكسر أَضَلّ.

﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ الْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أي: دلالة ويقين وحجة وبرهان، لا على هوى؛ ومنه البينة لأنها تبين الحق وتظهره. ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِ﴾ أي: بالبينة لأنها في معنى البيان؛ كما قال: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ [النساء: ٨] على ما بيناه هناك. وقيل يعود على الرب، أي: كذبتم بربي لأنه جرى ذكره. وقيل: بالعذاب. وقيل: بالقرآن. وفي معنى هذه الآية والتي قبلها ما أنشده مُصْعَب بن عبد الله بن الزُّبير لنفسه، وكان شاعراً محسناً رضي الله عنه:

أأقعدُ بعدما رجفتْ عظامي ... وكان الموتُ أقربَ ما يليني
أُجادل كلَّ معترضٍ خصيمٍ ... وأجعل دينَه غرضاً لديني
فأتركُ ما علمتُ لرأيِ غيري ... وليس الرأيُ كالعلم اليقينِ
وما أنا والخصومةُ وهي شيءٌ ... يُصرَّفُ في الشِّمال وفي اليمين
وقد سُنَّت لنا سُنَنٌ قوام ... يَلُحْنَ بكلِّ فَجٍّ أو وَجِين
وكان الحقُّ ليس به خفاءٌ ... أغَرَّ كغُرَّة الفَلَق المبين
وما عوضٌ لنا منهاجُ جَهْمٍ ... بمنهاج ابنِ آمنةَ الأمين
فأمّا ما علمتُ فقد كفاني ... وأمّا ما جهلتُ فجنِّبوني

قوله تعالى: ﴿مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ أي: العذاب؛ فإنهم كانوا لفرط تكذيبهم يستعجلون نزوله استهزاء نحو قولهم: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ [الإسراء: ٩٢] ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] وقيل: ما عندي من الآيات التي تقترحونها. ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ﴾ أي: ما الحكم إلاَّ لله في تأخير العذاب وتعجيله. وقيل: الحكم الفاصل بين الحق والباطل لله. ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ﴾ أي: يقص القَصَص الحق؛ وبه استدل من منع المجاز في القرآن، وهي قراءة نافع وابن كثير وعاصم ومجاهد والأعرج وابن عباس؛ قال ابن عباس قال الله عزّ وجل: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣] والباقون «يَقْضِ الحَقَّ» بالضاد المعجمة، وكذلك قرأ عليّ رضي الله عنه وأبو عبد الرحمن السُّلَمي وسعيد بن المسيّب، وهو مكتوب في المصحف بغير ياء، ولا ينبغي الوقف عليه، وهو من القضاء؛ ودل على ذلك أن بعده ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ والفصل لا يكون إلاَّ قضاء دون قَصص، ويُقوِّي ذلك قوله قبله: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ﴾ ويقوّي ذلك أيضاً قراءة ابن مسعود «إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقْضِي بِالْحَقِّ» فدخول الباء يؤكد معنى القضاء. قال النحاس: هذا لا يلزم؛ لأن معنى «يقضي» يأتي ويصنع فالمعنى: يأتي الحق، ويجوز أن يكون المعنى: يقضي القضاء الحق. قال مكيّ: وقراءة الصاد أحب إليّ؛ لاتفاق الحرميَّين وعاصم على ذلك، ولأنه لو كان من القضاء للزمت الباء فيه كما أتت في قراءة ابن مسعود. قال النحاس: وهذا الاحتجاج لا يلزم؛ لأن مثل هذه الباء تحذف كثيراً.

﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٥٨﴾

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ أي: من العذاب لأنزلته بكم حتى ينقضي الأمر إلى آخره. والاستعجال: تعجيل طلب الشيء قبل وقته. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ أي: المشركين وبوقت عقوبتهم.

تم الجزء السادس من تفسير القرطبي

يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء السابع وأوله قوله تعالى:

﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾